١

وَادِي النَّمْلِ

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

حقوق التأليف والاعداد محفوظة لدار ابن الأثير/جامعة الموصل

لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN - 978 - 614 - 414 - 599 - 9

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى
بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة النمل ـ الآيات (١٦ ـ ١٩).

إِرْثُ «دَاوُدَ»

ولهذا الإِرْث قِصَّة...

قِصَّـةٌ تتعلَّق بِنُبُـوَّةِ «داوُدَ» ومُلْكِهِ على «بني إسـرائيل»؛ فقـد خَرَجَ «داوُدُ» ـ وكان فتًـى يافعًا ـ بناءً على طَلَبِ أبيه، مُرافقًا لِجيش الإِسرائيليين بقيادة «طالوت»، في قتالهم مع العماليـق بقيادة «جالُوت»... خَرَج مُرافِقًا ومُراقِبًا ولَيْس مُقاتِلًا؛ لِيَطَّلِع على ما يَفْعله إِخْوتُهُ في المعركة.

فلمَّا بَرَزَ «طالُوتُ» بقُواتِهِ من «بني إسرائيل» لِـ«جالُوت» وَجُنُـودِه، كانَتِ المعركةُ شـديدةً وحاميـةَ الوطيس، ولم يَسْتَطِعْ «بنو إسرائيل» أَنْ يَهْزِمُوا عَدُوَّهم ...

وكان «داوُدُ» يُرَاقِـبُ سَـيْرَ الْقِتَـال، ويَتَوقَّـدُ حماسَـةً وحَسْرةً، فَتَقَدَّم من القائد «طالُوت» بِثِقَةٍ واعْتزازٍ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِمُبَارزَةِ «جالُوت»!

نَظَرَ إِلَيْهِ «طالُـوتُ» نَظْرَةَ احتِقَار وازْدراء وعَدَم مبالاة، وبعد إِلْحَاحٍ، سَمَحَ لَهُ بما يُرِيد.

ونـزل «داوُدُ» إلى المَيْـدان وهـو لا يَحْمِلُ من السِّـلاح سوى مِقْلاعِهِ؛ فقد كان يَعْمَلُ في رعاية الأغنام والماشية، ويَسْـتَخْدِم المِقْلاعَ لِذَبِّ الذِّئَاب وغيرها من الحيوانات المُفْتَرِسَةِ عن القطيع.

وَوَضَـعَ «دَاوُدُ» الحَجَـرَ الأَوَّل في مِقْلاعِـهِ، ثُـمَّ لوَّحَ بِهِ أَكْثَر مِن دَوْرَةٍ بيمينـه، ثُمَّ أَطْلَقَهُ، فمضى الحَجَرُ يَصْفِرُ في الْهَواء كَأَنَّه السَّهْم، حتى اسْتَقَرَّ في جَبْهَةِ «جالُوت»!!

وأَتْبَعَ ذلك بِحَجَرٍ ثانٍ ... وما هي إلَّا لحظات حتى كان «جالُوتُ» صريعًا مُمَـدَّدًا على الأرض، وانْهَزَم العماليق، وانتَصَرَ «بنو إسرائيل» بِفَضْلِ شجاعةِ وَقُوَّةِ «داوُد».

وَأُعْجِبَ «طالُوتُ» بـ«داوُدَ»، فَقَرَّبَهُ مِنْهُ وأَدْنَاهُ، وَبَوَّأَهُ[1] أَعْـلى المناصب، ومَضَـتِ الأيام و«داوُدُ» يكبـرُ وَيَتَرَقَّى، وَيُسجِّلُ في كُلِّ يَوْمٍ نَصْرًا وَتَفَوُّقًا..

ولقـد حَدَثَـتْ بَيْـن «داوُدَ» و«طالُوتَ» حـوادِثُ كثيرَةٌ أدَّت إلى سُـوءِ علاقةٍ بَيْن الطرفين، لكنَّ منزلة «داوُدَ» عند الناسِ عامَّةً كانَتْ تَعْلُو..

---

(١) بوَّأَهُ: وظَّفَهُ وأقامه.

إلى أَنْ مـات «طالـوت»، وتسـلَّم «داوُدُ» عَـرْشَ «بنـي إسرائيل».

وَوُلِدَ لِـ «داودَ» «سُلَيْمَان»، وَنَشَأَ نَشْأَةَ التَّقْوى والفَضِيلة والْعِلْـم الغزيـر... وقـد اختـارَهُ الله تعـالى نَبِيًّـا لـ «بنـي إسرائيل»، فَوَرِثَ أباه في الْمُلْكِ وفي النُّبُوَّة.

عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

وزادَ «سُـلَيْمانُ» عـلى أبيه «داود» بِفَضْـلٍ من الله تعالى، وعطاءٍ مِنْهُ سُبْحانه...

لقـد كان «داوُدُ» عليه السلام في إِبَّانِ مِحْنَتِهِ مع «طالوت» يَعِيشُ بعيدًا عـن الحواضِرِ[1] والمُـدُن، يَأْلَفُ البَـراري والجِبالَ والوِدْيانَ، يَقْتَاتُ من الزُّرُوع والنَّباتات والعَسَـل، ويُعاشِرُ حيوانات الْقِفار..

وكان رخيـمَ الصَّوتِ، نَدِيَّ النَّبَرات، إذا ما أَنْشَـدَ وَغَنَّى في تَسْـبيحات وتحميداتٍ وأَدْعِيَةٍ، رَجَّعَـتْ صَوْتَهُ الجِبالُ والوِدْيانُ، وردَّدت مَعَهُ أَقْواله. وكذلك الحيوانات والطُّيُور، تَدْنُو مِنْهُ وَتَقْتَرِبُ في أُلْفَةٍ وأُنْسٍ وَدَعةٍ.

وحيـن وَرِثَ «سُـلَيْمانُ» أبـاهُ «داوُدَ»، زادَهُ الله ـ تعالى ـ بَسْطةً في الْعِلْمِ والحِكْمَةِ والمعرفةِ، وعلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْر.

فما من طائرٍ يطيرُ بجَناحَيْهِ مُحَلِّقًا في الْفَضاء، أَوْ مُتَّخِذًا من الأشـجار العالية والصُّخُور الشاهقة أَوْكارًا وأعشاشًا إِلَّا ويَتَحدَّثُ إليه «سُلَيْمانُ» وَيَفْهَمُ لُغَتَه!!

(١) الحواضر: المُدن.

وليس هذا فَقَطْ، بل كان لهُ عليه السلام بِفضلٍ من الله ـ تعالى ـ سُلْطانٌ عَلَيْها، يأْمُرُها بما يشاءُ فتَفْعَلُ وتُنَفِّذ.

وَكَذَلِكَ الْجِنّ...

وَسَلَّط الله ـ سبحانه وتعالى ـ «سُلَيْمَانَ» على عالَمِ الْجِنِّ أَيْضًا، وهِيَ العوالِمُ الخَفِيَّةُ الَّتِي لا تُرى.. عوالم وأُمَم

أَمْثالنا.. يتناسَـلُون ويتكاثَـرُون، وأَكثر ما تكون إِقامَتُهُم في الأماكن المهجورة والخِرَب، مِنْهُم الضَّار ومِنْهُم النافع..

وَبَيْـن الطَّيْر والْجِنِّ.. كانت قِصَّةُ عَرْش «بِلْقيس» ملكة «سَبَأ»، مع «سُلَيْمان» عليه السلام.

و«الهُدْهُـد» هُوَ الَّذِي نَقَلَ نَبَأَ الْقَوْم... بِأَنَّهم يَسْـجُدون لِغَيْر الله، وَيَعْبُدون غَيْرَ الخالق سُبْحانَهُ...

و«عِفْريتُ الجِنِّ» هُوَ الَّذي أتى بِعَرْشِ «بِلْقِيسَ» قَبْل أن يرتَدَّ طرْفُ «سُلَيْمانَ» إِلَيْه...

هـذا التَّسْـخير وهذَا السُّـلْطان لِـ «سُـلَيْمان» عليه السلام كان فَضْـلًا من عند الله ـ تعـالى ـ وابتلاءً، واختبـارًا وامتحانًا؛ هَلْ يَشْكُرُ فَيَعْدِل، أم يَكْفُرُ فَيَظْلِم؟؟

ولذا، قال «سُلَيْمانُ» عليه السلام:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾

إِلَى وادِي النَّمْلِ

وفي ذات يَـوْم مـن أيَّـام حُكْـم «سُـلَيْمان» وسُـلْطانِهِ، تهيَّأ لِلخـروجِ من حاضرتِهِ «بَيْت المَقْـدِس»، لِحَرْبٍ مع خُصومِهِ أعْداءِ الله!

أَعَدَّ جُنْدَهُ وَجَيْشَهُ، ورتَّب قُوَّاتِهِ، ونَظَّم آلاتِهِ... وحُشِرَ لَـهُ جُنُـودُهُ مِنَ الْجِـنِّ والطَّيْـر والحيوانات ... ثُـمَّ انْطَلَقَ بهـم جميعًا، فَمَـلأوا الجِبالَ والوِهادَ والسُّـهُولَ، وغَطُّوا الأَرْضَ، فَكأنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ الحَشْر!!

كان «سُـلَيْمان» عليه السلام فـوْقَ صَهْـوَةِ جَـوَادِهِ، وفي وسـط حُشُـودِهِ وَجُنُودِهِ، يَنْظُرُ يَمْنَةً وَيَسْـرةً فيرى المُلْكَ العظيمَ الَّـذي لـم يُؤْتَهُ أَحَدٌ مـن قَبْلِهِ، فَيُطَأْطِئ الـرَّأْسَ والهام[1]؛ إجـلالًا وتعظيمًـا لله تعالى، فلا تزيـدُه مظاهِـرُ المُلْكِ إلا تواضُعًا وشُكرًا، لا يتجبَّرُ، ولا يتكبَّرُ، ولا يَطْغى.

كانَـتِ الأَرْضُ تَهْتَـزُّ وتَرْتَجفُ وتَضْطـربُ تحْت وقْع

(١) الهام: الرأس.

حوافِرِ الخيْـل وأقدام الجُنْد... وكأنَّها في زلْزلةٍ شـديدة!
ولا تزيدُها أصواتُ الحيوانات وهَمَساتُ الْجِنِّ وسَقْسَقَةُ الطُّيُور إلَّا ميْدًا وارْتجاجًا.

وفي بُقْعَةٍ من الأَرْضِ ... في سَـهْلٍ مُمْتَدٍّ فسـيح مَزْروع بِالْقَمْـح، كانَتْ أَفْواجٌ من النِّمـال في خُطوط مُواصَلاتٍ، تَسْـعى حامِلَـةً بَعْـضَ الحَـبِّ، في غُـدُوٍّ ورواح، تَخْتَـزِنُ الْحُبُوبَ في جَوْفِ الأرض، في قُرًى مُحَصَّنة، قد اتَّخَذَتْها طبقـاتٍ مُتَعَـدِّدة؛ مَؤونةً لها لأَيَّام الشِّـتاءِ، حَيْثُ تَسْـكُنُ وتَقِلُّ حَرَكَتُها عن السَّعْي والعَمَل...

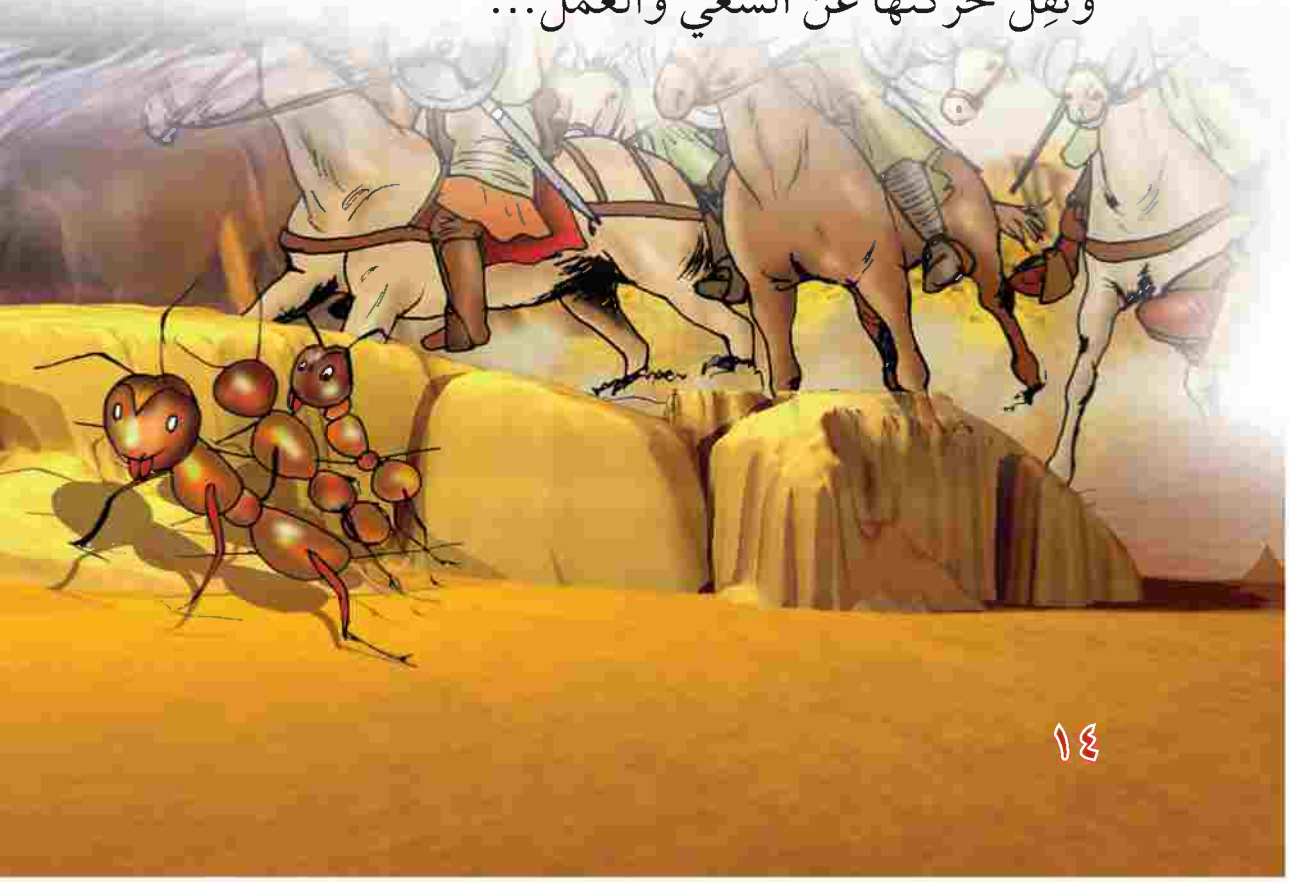

مُجْتَمَعُ النَّمْل ـ يا بُنَيَّ العزيز ـ مُجْتَمَعُ تَعاوُنٍ وتآزُر، إنْ قَصَّرتْ نَمْلةٌ في عَمَلٍ، بِسَبب ضُعْفٍ، أوْ ثِقْل حِمْلٍ، ساعدَتْها الأُخْرَياتُ من الرفيقات... غَرِيزَةٌ أَوْدَعها الله في مخلوقاتهِ.

عِنْدَما اقْتَرَبَ جَيْشُ «سُلَيْمانَ» عليه السلام من وادي النَّمْل، بِكُلِّ ضَوْضائِهِ وَجَلبَتِهِ، وطَغَى على كُلِّ صَوْتٍ، حَتَّى إنَّه لَيُشبِهُ الزَّلْزَلَةَ التي تُخْرِسُ كُلَّ صَوْت. تَبسَّم «سُلَيْمانُ» عليه السلام ضاحكًا!! تَبَسَّم وَحْدَهُ فقط، أمَّا الحُشُودُ كُلُّها فقد كانتْ في معْزِلٍ؛ لقد كان كُلٌّ منْها فيما يَشْغَلُه ويهمُّه، ضِمْنَ حُدُودِهِ ومَعْرفتِهِ.

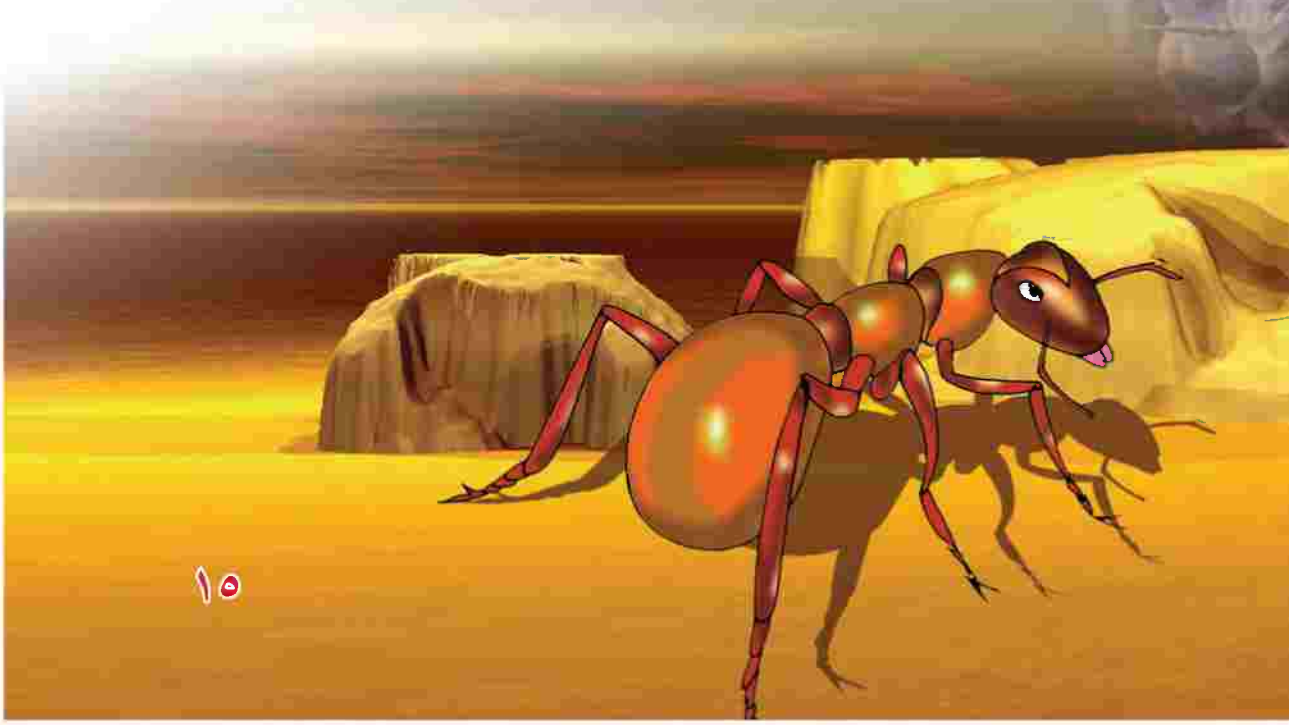

إذ سَمِعَ «سُلَيْمانُ» بما آتاهُ الله من فضلِهِ، إحْدى النِّمال تَقُول مُنادِيةً زميلاتها، في تَحْذير وتَنْبيه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وكأنَّها صَفَّارَةُ الإنذار من غارةٍ... لا يسمعُها ولا يُدْركُها إلَّا أَهْلُها، ومَنْ تَخْتَصُّ بِهِم فقط! ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وهذا صَحيحٌ؛ فكيْف يُحِسُّ وَيَشْعُرُ السَّائِرُ على الأَرْضِ بالنَّمْلَة، وهي الحيوان الضَّعيف؟!!

ولقد عَرَّفتِ النَّمْلةُ المُحَذِّرَةُ زميلاتها أنَّ القادم عليهم في واديهم هُوَ «سُلَيْمانُ» عليه السلام بجَيْشِهِ اللَّجِب[1]، وَقُوَّاتِهِ الغفيرة الكثيرة.

ويُقال ـ يا بُنيَّ العزيز ـ بِأَنَّهُ لَيْس في عالم النِّمال أَصْوات مَحكِيَّة، بل إن لُغةَ التخاطُبِ والتفاهُم عِندها تكُون بِمُلامَسَةِ القُرون، التي تُشْبِهُ الرادارات، وتُرْسِلُ الذَّبْذبات...

عِنْدَئِذٍ تَبَسَّم «سُلَيْمَان» عليه السلام ضاحِكًا من قَوْلها، ولكن

(١) اللَّجِب: الكثيرُ الصِّياحِ والضَّوْضاءِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْجُنودِ والأَسْلِحَةِ.

لَيْسَ ضِحْكَةَ السُّخْرية والاستهزاء من هذا المخلوق الضعيف، ولَيْسَ ضِحْكَةَ الغَطْرسة والجَبَروت، ولَيْسَ قَهْقَهَةَ الطُّغْيانِ والاسْتِبْدَاد، بل بَسْمةً كُلَّها رِقَّةٌ وعُذُوبة، تُعَبِّر عمَّا يُخالِجُ[1] قَلْبَهُ الكبير العظيم مِنْ عِرْفانٍ وشُكر لله تعالى.

ومن فَوْق صَهْوةِ الجواد، أَحْنى «سُلَيْمانُ» الرَّأْسَ إِجْلالًا للخالق العظيم، والواهب الكريم... ثُمَّ تَرَجَّل[2] وسَجَدَ، وأعطى الأَمْر لِجُنْدِهِ وحَشْدِهِ بالتأنِّي والتَّوقُّف، رَيْثَما تَأْخُذُ النِّمالُ طريقها إلى السَّلامة والأمان.

ودعا الله رَبَّه فقال:

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

---

(١) يُخالِجُ : يَشْغَلُ.

(٢) تَرَجَّلَ : نَزَلَ من فَوْقِ الحِصانِ.

٢

حَيَّةُ مُوسَى

عليه السلام

الجزء الأول

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ
أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ
﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ
يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة طه ـ الآيات (١٧ ـ ٢٣).

(٢) سورة القصص ـ الآيتان (٣٠، ٣١).

شَبَّ سَيِّدُنا «موسى» عليه السلام في بيت «فرعون»؛ فكان شديدَ البأْسِ وافرَ القُوَّة؛ وكان يعلمُ أَنَّه من بني إسرائيلَ، ذلك الشَّعْب الذي يَضْطهدُه الفراعنة، فأخذ يكُفُّ عن قومه عاديةَ[1] الظلمِ والطغيان.

خرج يَوْمًا يمشي في الأَسواق، فَوَجد رجُلًا مِصْريًّا يُمْسِكُ عِبْرانيًّا ليُسَخِّرَه في بعضِ عملِهِ؛ فاستغاث العِبْرانيُّ بسيدنا «موسى»، فَدَفَع المِصْرِيَّ بيده فقتله، ثم واراهُ الترابَ، ولم يعلمْ بذلك الأمْرِ سِوَى العِبْرانيِّ الذي نصرهُ «موسى» عليه السلام.

ثم ندم على ما فعل، وقال في نَفْسِه:

«إنَّ هذا الذي أتيْتُ من عَمَلِ الشيطان، إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٍ».

ودعا الله تعالى أن يتوبَ عليْه، وأن لا يجعله مُعينًا للمجرمين وناصرًا لأَهْلِ الشَّر.

وفي اليومِ التالي خرج إلى المدينة خائفًا افتضاحَ أَمْرِه، فرأى نفسَ الشخص الإسرائيليِّ الذي نصره بالأمس يتشاجر مع

(١) عادِيَةُ فُلانٍ: ظُلْمُه وشَرُّه.

مِصـريٍّ آخرَ اليوم، فثارت ثائرتُه وهَـمَّ بضَربِ المِصْريِّ، فظنَّ الإسرائيليُّ أنَّه المقصود، فقال لسيدنا موسى:

﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾.

فانطلـق المصريُّ فـارًّا، وأَخْبَرَ قَوْمَهُ بأن «موسـى» هو الـذي قَتَل صاحبَهم، فرفعوا الأمرَ إلى «فرعون»، فأرسـل إلى «موسى» الذَّبَّاحين.

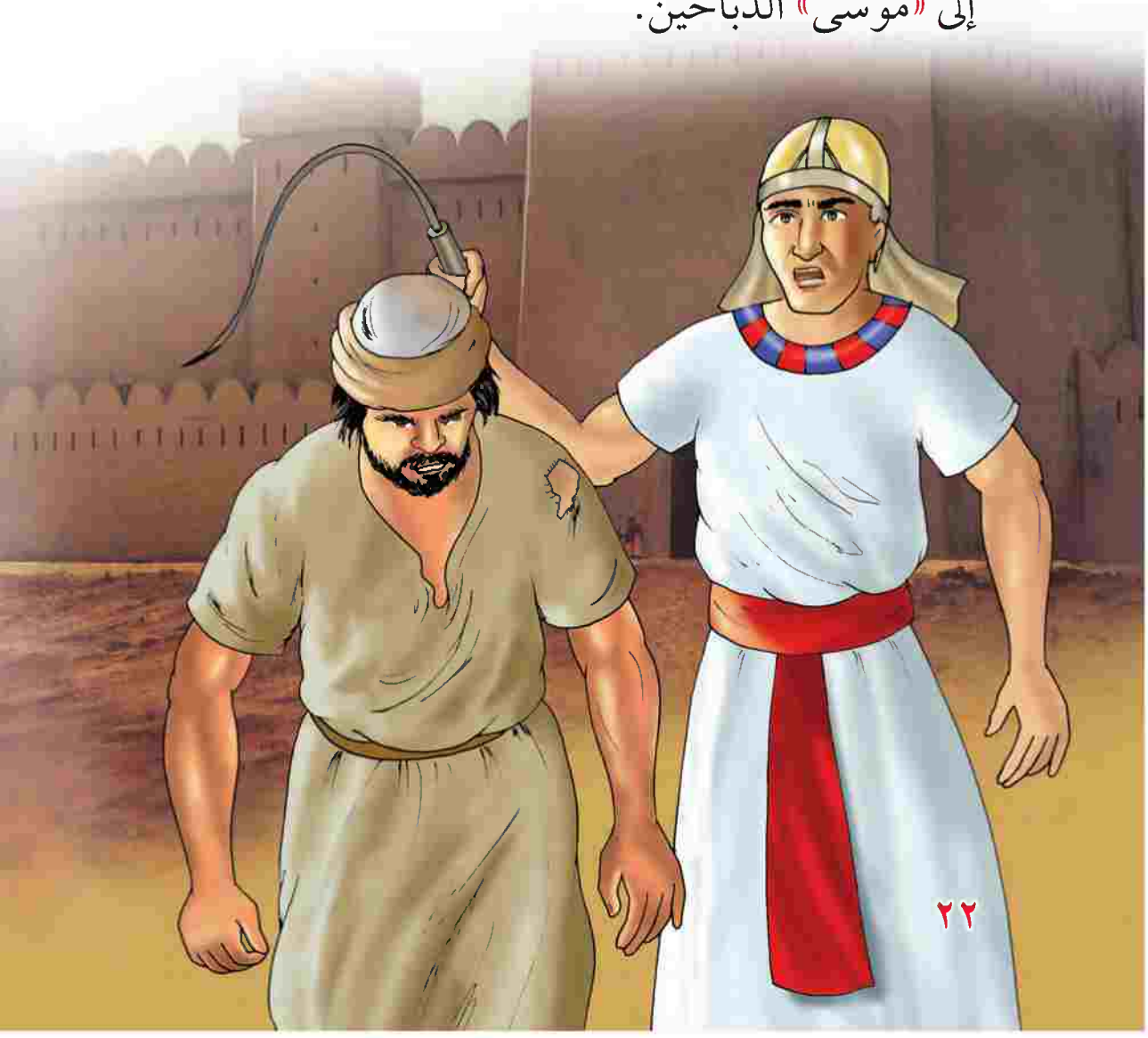

وفي ذلك الوقت جاءَ إلى «موسى» رجُلٌ من آلِ «فرعون»، فأخبَرَهُ بأَنَّ القوْمَ يأْتَمِرُونَ به ليقتلوه؛ جاءه من أقصى المدينة مُسْرعًا؛ ليسبقَ الذين يطلبونه، ونصحه أن يَنْجُوَ بنفسه، ويُغادِرَ «مِصْرَ» على الْفَوْر، فَخَرَجَ سيدُنا «موسى» باتجاهِ أرض «مَدْين»، وهي بلادٌ واقعةٌ حَوْلَ خليج «العقبة»، فلم يتزوَّدْ للطريقِ، ولم يُعِدَّ للسَّفر عُدَّتَهُ معتمدًا على الله تعالى في هدايتِهِ إلى السبيل القويم.

فلمَّا وَصَلَ إلى ماءِ «مَدْين»، وكان الجُوعُ والجُهْدُ قد نالا مِنْهُ كثيرًا، وجد جماعاتٍ كثيرةً من النَّاس يَسْقُونَ ماشيتَهم؛ ووَجَد امرأتَيْنِ تقفان بعيدًا وتمنعان غنمهما عن الشرب؛ انتظارًا للقومِ حتى ينتهوا.

وكان «موسى» عليه السلام رجلًا يتحلَّى بصِدْقِ الرَّأْي والجِدِّيَّةِ التامَّة، فلمَّا رأى حالَ المرأتيْن لم يُعْجِبْهُ ذلك، فسألهما عن شأْنِهما، فقالتا:

«لا نسقي حتى ينتهيَ هؤلاءِ النَّاسُ، وإذا حاولنا التقدُّمَ منعونا، وانتظارُنا يَضُرُّ بنا؛ فإنَّ أَبانا شيخٌ كبيرٌ وضعيفٌ».

عندئذٍ ثارت رجولة «موسى» وحَمِيَّتُهُ، فَطَرَدَ الرُّعاةَ، وتقدَّم من البئر، وأخذ يسقي لهما غنمَهُما؛ ولم يَقْدِرْ أحدٌ على مَنْعِهِ؛ لأنَّ النَّاسَ دائمًا يحترمون الأقوياء، وقد رأَوْا من قُوَّةِ «موسى» عليه السلام وإقدامِهِ ما أَلْزَمَهُمْ حَدَّ الأَدَبِ مَعَهُ.

وعادت المرأتان إلى أبيهما الشَّيْخ الَّذي تعجَّب من تبكيرهما بالعودةِ، على خلافِ شأْنِهما كلَّ يوم، فسأَلَهُما عن السبب، فأخبرتاهُ بما كان من أَمْر الرجُل المِصْري «موسى» الذي سقى لهُما وأتاح لهُما العودةَ مُبَكِّرَتَيْن؛ فأراد الشَّيْخُ أن يُكْرِمَ هذا الرَّجُلَ؛ فَأَرْسَلَ إحدى الابنتين إليه، فجاءته فإذا هو لا يزالُ في مكانِهِ قُرْبَ الماء، فقالت له باسْتِحياءٍ بالغ:

﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾.

وكان «موسى» عليه السلام ـ كما عَلِمْتَ ـ مُجْهَدًا جائعًا، فرأى الفرجَ من ناحيةِ تلك المرأَةِ وأبيها، وعَلِمَ أنَّ الله استجاب، لدعائِهِ حينَ قال:

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

وهكذا تكـونُ دعوةُ المظلومِ سـريعةَ الإجابـة، ويكونُ غَرْسُ الجميلِ قد أَثْمر وآتى أُكُلَهُ في وقْتٍ وجيز، والله تعالى يُضاعِفُ الحسَنَاتِ لعبادِهِ المُخلِصين.

استجاب سيِّدُنا «موسى» عليه السلام لدعوةِ الشيخ، وتَبِعَ المَرْأَةَ إلى دارِ أبيها، فلمَّا دَخَل عليه رحَّبَ به الشيخ وسألَهُ عن شأْنِه،

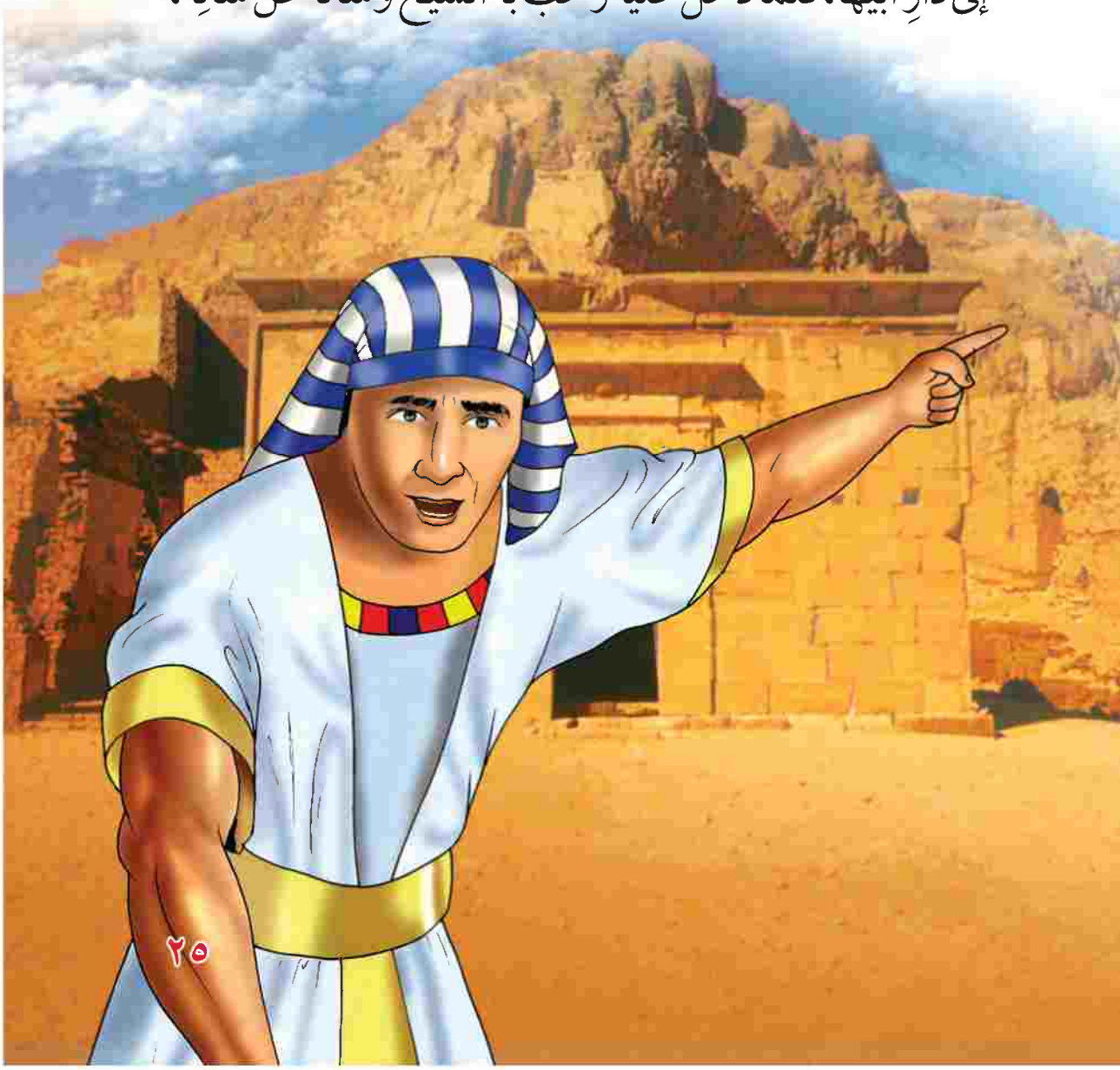

فَقَصَّ عليْهِ «موسى» القصَصَ، وروى له ما فَعَلَ «فرعونُ» ببني إسرائيلَ، كيف يُذَبِّحُ أبناءَهم ويَسْتَحْيي نساءَهم، وأَنَّه ـ أي موسى عليه السلام ـ قد أَفْلَتَ من بَيْنِ يدَيْه بِأُعْجوبة.

فَطَمْأَنَهُ الشيخ وقال له:

﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ثم استضافَهُ عنده. وحين ضَمَّ المجلسُ العائليُّ الأَبَ وابنتيْهِ، قالت له إحداهما:

«يا أَبَتِ استأْجِرْهُ لِرَعْي ماشيتِنا، فيكفينا مشاقَّ العمل؛ فهو قويٌّ أمين».

فقال الأبُ: «وما أدْراكِ مدى قُوَّتِهِ وأَمانتِهِ؟».

فقالت:

« أمَّا قُوَّتُه فما رأَيْتُ منه حين سقى لنا، لم أرَ رجُلًا قطُّ أقوى في السَّقْي مِنْهُ. وأمَّا أمانتُه فإنَّه نظَر حينَ أقْبلْتُ إليه، فلمَّا عَلِمَ أني امرأة صَوَّبَ رأسَه فلم يرفعْه ولم ينظرْ إليَّ حتى بلَّغتهُ رسالتك، ثم قال لي:

«اِمْشي خلفي ثُمَّ صِفِي لي الطَّريقَ».

ولم يفعلْ ذلك إلَّا وهُوَ أمين».

فَسُرَّ الأَبُ من كلام ابنته، وظنَّ بـ«موسى» خَيْرًا، وطَلَبَ إليْهِ أن يخدمَه برعْي غنمِهِ ثماني سنوات في نظير أن يزوِّجَه إحْدى ابنَتَيْه؛ فإنْ أَتَمَّ عَشْرَ سنين فيكون قد فَعَل أَكثَر من الواجب؛ فوافق «موسى»؛ وتمَّ بينهما الأمْرُ على ذلك.

وأضحى «موسى» عليه السلام صِهْرًا لذلك الشيخِ وراعيًا لغنَمِهِ.

ومكث «موسى» في خِدْمَةِ الشَّيْخ عَشْرَ سنين؛ وفاءً للعهد الذي قطعه على نفسِه وألْزمَها به؛ وفي السَّنَة العاشرة وَهَبَهُ عمُّه ـ والدُ زوجته ـ نتاجَ غنم تلك السَّنة، فَحَمَلتْ جميعُ الماشية.

ثم خرج بزوجته وغنمِهِ باتِّجاهِ «مصرَ»، حيث ينتظرُهُ فيها شعبُهُ وأهلُهُ؛ مارًّا ببريَّةِ «سيناء»؛ وفي إحدى الليالي الباردةِ بينما كان يرعى غنَمه ومعه زوجتُه ضَلَّ الطَّريقَ؛ فأراد أن يُوقِدَ نارًا يستدفئُ بها، فلم يُطاوِعْه زَنْدُهُ[1]، فَلَبِثَ حزينًا أَسِفًا.

(١) الزَّنْد: هو العود الذي يقتدح به النار.

وبينمـا هو على هـذه الحال رأى بصيصَ نـارٍ من بعيد؛ فَنَشِطَ قائمًا وَهَبَّ واقفًا، وقال لِزَوْجتِهِ:

«اُمْكُثِي[1] ها هنا، ولا تُغادِري مكانَكِ هذا؛ لأنَّني أرى نـارًا عن بُعْدٍ، فسـأمضي إليها؛ لعلِّي آتيك منهـا بجَذْوَةٍ[2] تُذْهِـبُ عَنَّـا البرْدَ والخـوفَ، أَوْ أَجدُ عند هذه النَّار بشـرًا يُساعِدُنا؛ فيهدينا السبيلَ ويدلُّنا على الطريق».

ثم مضى «موسـى» باتِّجاهِ النَّار يُغِذُّ إليها السَّيْرَ ويَحُثُّ الخُطى؛ فلمَّا أَتَاها واقتربَ منها وَجَدَها في شـجرة عُلَّيْق، شديدةَ اللَّهَبِ صافيةَ الضِّياءِ والنور.

ومن عجيب ما رآه فيها وجَعَله يقفُ عندَها مُسْتَغْرِبًا أنَّ هذه النارَ لا تُطْفأ، وأنَّ العُلَّيْقَةَ لا تَشْتَعِلُ!

ولم يجد «موسـى» عندَ النارِ أَحَدًا من البشر يَسْأَلُه عن الطريق، ثم فجأَةً سمعَ صوتًا من وسطِ النَّارِ يناديه:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) امكُثِي: ابْقَيْ وانتظري.

(٢) الجَذْوَةُ: الجَمْرَةُ المُلْتَهِبَةُ (الشُّعْلَة).

ثـم أَمَـرَهُ بخلْعِ نعليْه؛ فقـد كانتا من جِلْدِ حمـارٍ ميْتٍ، والمـكانُ الَّذِي وقفَ فيه «موسـى» هو الـوادي المُقَدَّس «طُـوى»؛ فخلعهمـا امتثالًا لأمْـرِ الله تعـالى، وقلبُهُ يخفقُ خفقانًـا شـديدًا رهبةً وخوفًـا، وقد أصابتـه قُشَـعْرِيرَةٌ[1] وَرَجْفَة. ثُمَّ كلَّمَهُ الصَّوْتُ ثانيةً؛ ليُزِيل عنه ما بِهِ من الجَزَعِ ويُؤْنِسَه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ؟ ﴾.

فقال عليه السلام:

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي[2] وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ[3] أُخْرَىٰ ﴾.

فقال الصَّوْتُ:

﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾.

وكما امتثل عليه السلام لأَمْرِ الله تعالى بخلْع نَعْلَيْه؛ ﴿ فَأَلْقَىٰهَا ﴾ مـن يـدِهِ ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾، قَـدْ صـارت شُـعبتاها

---

(١) قُشَعْريرة: رجفة.
(٢) لأَجمعها حتى لا تتفرَّقَ، وأَذُبّ عنها الوحوش.
(٣) مَآرِبُ : منافع وفوائد.

فَمَهـا، وصار مِحْجَنُها عُرْفًا لهـا في ظَهْرِها، وراحت تَهْتَزُّ على وَجْهِ الأديمِ وفوق ثرى الأرض؛ وأنيابُها بارزة. فهي كما شاء لها الله تعالى أنْ تكون.

لقـدْ رأى «موسـى» عليه السلام أَمْـرًا فظيعًـا خارِقًا لـم يَعْهَدْهُ مِن قَبْل؛ وكان حتى تلك السـاعةِ مُتَمالِكًا نفسَه، مُتَجالِدًا مُتَماسِـكًا، لكنـه إزاءَ انقـلابِ العصا حَيَّةً تَسْـعى، أطلق سـاقيْه لِلرِّيح، ووَلَّى مُدْبِرًا يُريدُ أن يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ، ويخلُصَ مِمَّا فيه...

فنادَاهُ ربُّه قائلًا:

«يا «مُوسـى» أَقْبِلْ ولا تَخَـفْ، وَعُدْ إلينـا مطمئنًّا آمنًا، سـنُعيدُها سـيرتَها الأولى وطبيعتَهـا الأصليَّـة عصًـا كمـا كانت».

نزلتْ هذه الكلماتُ على قلب «موسـى» بَرْدًا وسلامًا، فتوقَّف في مكانه، ثُمَّ خطا إلى الوراء، فلمَّا دَنا منها وهي لا تزالُ على الأرض تهتزُّ كأنَّها الْجانُّ، قال له الله تعالى:

«خُذْها ولا تَخَفْ !! وأَدْخِلْ يدَكَ في فمِها».

وكان «موسى» عليه السلام يرتدي جُبَّةَ صُوفٍ، فَلَفَّ يَدَهُ في كُمِّهِ خَوْفًا من أَنْ تُؤْذِيَهُ بِعضَّةٍ سامَّة؛ فقال له الله تعالى: «أَلْقِ كُمَّك عن يَدِك».

فألقاهُ عنها، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ لِحْيَيْها[1]، فلمَّا أَدْخلها مُحاذرًا وقبض عليها، فإذا هي عصاهُ في يَدِه، ويَدُهُ بَيْن

(١) لِحْيَيْها: فَكَّيْها.

شُعْبَتَيْها حيثُ كان يضعُها، ومِحْجَنُها بموضعه الذي كان؛ لا يُنكرُ منها شيئًا؛ إنها عصاهُ التي كان يتوكَّأُ عليها ويَهُشُّ بها على غنمه، فازداد تعجُّبُه واستغرقتْهُ دهشتُه.

ثم قال له الله تعالى:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (١) تَخْرُجْ بَيْضَآءَ (٢) مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ (٣) ﴾.

وكان «موسى» عليه السلام طويلًا، أَقْنى الأنْف(٤) جَعْدًا(٥) فيه سُمْرةٌ شديدة. فامتثل لأَمْرِ الله تعالى وأَدْخَلَ يَدَهُ في جيبه، ثم أَخْرجها بيضاءَ مِثْلَ الثَّلْج تَبْهرُ الأَعْيُن؛ ثُمَّ رَدَّها فعادَتْ كما كانت سمراءَ تقرُبُ من السَّواد!!

عندئذٍ قال له الله تعالى:

﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

---

(١) جَيْبك : فتْحة القميص عند العُنُق.

(٢) بَيْضاءَ : شديدةَ البياض، وضَّاءةً مُنيرَةً، تَشعُّ سناءً.

(٣) مِنْ غَيْرِ سُوء : من غير مَرَض.

(٤) أَقْنى الأنْف : في أَنْفه انحناء.

(٥) جَعْدًا : مُجَعَّد الشَّعْر.

أي هاتان علامتان وآيتان على نُبُوَّتك إلى «فِرْعون» وقَوْمِهِ الفاسقين الذين خرجوا على طاعتي وحُكْمي.

فأدرك «موسى» عندئذٍ تَبِعَةَ ومسئوليةَ الرِّسالةِ الَّتي كلَّفه الله إياها، فقال:

﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِيٓ ﴾.

والسَّبَبُ في استعانةِ «موسى» بأخيه «هارون» عليه السلام؛ أن «هارون» كان مُقيمًا في «مصْر»؛ فَهُوَ يَعْلَمُ لُغَةَ أَهْلِها، فَيستطيعُ أَن يُفْهِمَهُمَ ويُبَيِّنَ لهم. فقال الله تعالى:

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ[2] بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا[3] فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا[4] ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

وإلى هُنا ... تَمَّ أَمْرُ النبوَّةِ والرِّسالةِ إلى سيِّدنا «موسى» عليه السلام. فعاد إلى حَيْثُ تَرَكَ زوجتَه وماشِيتَهُ، ثم سار بهم نَحْوَ

---

(١) رِدْءًا: عَوْنًا.

(٢) عَضُدَكَ: ساعِدَك.

(٣) سُلْطانًا: بأْسًا وقُوَّةً.

(٤) من اتَّبَعَكُمَا: أي من الناسِ.

«مِصْرَ» فَبَلَغها ليْلًا؛ ولأَمْرٍ قدَّره الله تعالى نَزَلَ «موسى» بدارِ أَهْلِهِ وهُوَ لا يعرفُهم، وهم يُنكرونه، فطلب أن يُضَيِّفُوه، فقدَّمتْ له ربَّةُ الدار (أُمُّه) الطعامَ، فجلس مَعَ زوجتِهِ في فِناءِ البيْتِ يتناولان عَشاءَهُما.

ثُمَّ أَقْبَل «هارون»، فسأل أُمَّهُ عنهما، فأخبرتْهُ أَنَّهما من الضيوف، فأتى إلى «موسى» يُجالسه ويُكلِّمه، ثم سأله عن اسمه، فقال الضَّيْفُ:

«أنا «موسى»!».

فقال «هارون» فَرِحًا مُغْتَبِطًا:

«أخي!».

ثُمَّ قاما فَتَعانقا، وذَرفا دُموعَ الفَرَح، وعَلِمَتِ الأُمُّ بالخبر فاحتضنتِ ابنها وقبَّلَتْهُ؛ وساد الدارَ هرجٌ ومَرجٌ؛ ثم أخبر «موسى» أخاهُ «هارون» بأَمْر النُّبُوَّةِ والرسالةِ، وحدَّثه بتفاصيل ما جَرَى له في بَرِّيَّة «سيناء»، وطلب إليه أن يكتُمَ خبرَ حضوره إلى «مصر»؛ كَيْ يتدبَّرا أَمْرَ لِقاءِ «فرعون» ودَعْوَتِهِ، فأطاعه «هارون».

٣

حَيَّةُ مُوسَى

عليه السلام

الجزء الثاني

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[1].

وقال تعالى على لسان «فرعون» و «موسى»:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيتان (١٠٤ ، ١٠٥).

(٢) سورة الشعراء ـ الآيات (١٨ ـ ٢١).

لَقَدْ أَصْبَحَ «هارون» شَرِيكًا لـ«موسى» في الرسالة، ومُعينًا له على تبليغ حُجَّة الله تعالى؛ وتناجيا[1] في الخُطَّة التي سيتَّبعانها والميعادِ الذي ينفِّذان فيه الدعوةَ، وكان حديثُهما على مَسْمَعٍ من الأُمِّ، أُمّ «موسى» التي ابتعدَ عنها ابنُها طفلًا حينَ أَلقتْهُ في الْيمِّ[2] وليدًا، ثُمَّ شابًّا يافعًا حين تربَّى في كَنَفِ[3] «فرعون»، ورجلًا مُسْتَوِيًا حينَ هَرَبَ من «مصر» إلى أرضِ «مَدْيَنَ»؛ فَخَافَتْ عَلَيْهما من بَطْشِ «فرعون» وظُلْمِهِ وجَبروتِهِ، وعارَضَتْ في ذَهابِهما إليه؛ فَلَمْ يُصْغِيا لِقَوْلها، وأَعْلماها أَنَّه ليس لهُما الخيارُ في تَنْفيذِ أَمْرِ الله تعالى ومشيئتِه؛ فأذعنتْ على مضض، وأَسْلَمَتْ أمرَها إلى الله، وَدَعَتْ لهما بالتَّوْفيق والسلامة.

ولمَّا جاءا إلى قصر «فِرْعَوْن» وجدا جُموعًا كثيرة، فحاولا الوصولَ إلى الحاجب، ولكنْ على غير طائل، ودُونَ جَدْوَى، فعادا من حيث قَدِما.

---

(١) تَنَاجَيا : تباحثا.

(٢) الْيَمُّ : البَحْرُ.

(٣) كَنَف : جَانِب.

واستمرَّ حضُورُهما حتى ظَفِرا[1] بالحاجب فأبلغاه عن غايتهما؛ فصرفَهُما وهو بهما هازئٌ ومن قولهما ضاحكٌ ساخرٌ، فلم يَيْأسا؛ وحضرا في اليوْمِ التالي وما بعده من الأيام، ودأَبا على الحضور وأَلَحَّا على مقابلةِ «فِرْعون» ومحادثتِهِ؛ عندئـذٍ لم يجدِ الحاجبُ مَفَرًّا من تنفيـذِ رغبتِهما، وطلبَ إلى مُضْحِكِ «فرعون» ومُهَرِّجِهِ أن يُخْبِرَ الملكَ بأمرِ هذيْن الرجلين؛ فدخل المُضحكُ على «فرعون» وقال له:

«إن بالبـاب رجـلًا مَجْنونًـا يَدَّعـي أنَّ له إلهًا غيرَكَ أيُّها الملكُ؛ فماذا ترى؟!».

سَـمِعَ «فرعـون» مقالـةَ المهـرِّج، فأَحَبَّ أن يتعـرَّفَ حقيقـةَ الأمـرِ؛ وسـمح لــ «موسـى» و«هارون» بالدخول.

دخل «موسى» و«هارون» على «فرعون»، وأَدَّيا مقالتَهمـا له وبلَّغاه رسـالةَ ربِّهما، وطلبـا إليه أن يُطلقَ ويُرسلَ معهما بني إسرائيل لعبادة ربِّهما.

---

(١) ظَفِرَا: لَقِيَا.

وكان مما قاله «موسى» عليه السلام على لسان «هارون»، أنَّه لم يَقُلْ على الله إلَّا الحقَّ، وقد أُرسلَ بآيةٍ منه. وقال أيضًا: وإذا ما حَقَّقْتَ لنا طلبَنا هذا تكونُ مَنَنْتَ وأَنْعَمْتَ علينا.

استمع «فرعونُ» إلى مقالةِ «موسى» و «هارون» حتى أتيا إلى النهاية، ثم التفَت إلى «موسى» يذكِّرُه بماضِيهِ وأنَّه قد رُبِّيَ

في بيت «فرعون» وليدًا، كما لَبِثَ فيهم سنينَ عِدَّةً مُحاطًا بالرِّعايةِ والعِنايةِ؛ وهذا يقتضي منه أن يكونَ حافظًا للوُدِّ، حريصًا على الوفاء، غيرَ متنكِّر لما قُدِّم إليه من الجميل، وَعَليْه أيضًا أن يَدَعَ كُلَّ ما يغيظُ «فرعونَ» وآلَهُ؛ فلا يُروِّعُهم[1] بِمُعْتَقَدٍ غريبٍ عنهم غير معروف لهم؛ كما أنَّ على «موسى» أن يبادرَ إلى عبادةِ «فرعون» والإخلاص والطاعة له.

ثم ذكَّرَهُ بفعلته التي فعل، وجريمتِه التي ارتكب حينَ قتل الرَّجُلَ القبطيَّ وفَرَّ هاربًا؛ فمن أَثِمَ هذا الإثْمَ لا يأتي بما هو أعظمُ منه، وهو حَمْلُ النَّاسِ على تركِ آلهتِهم وتقديس «فرعون» وتركِ التوجُّهِ إليه بالعبادة.

وحينَ انتهى «فرعون» من كلامه، أجابَهُ «موسى» مدافعًا عن نَفْسِهِ بالنِّسبةِ إلى التُّهمةِ التي يُعَيِّرُهُ بها «فرعونُ»، فقال: ﴿فَعَلْتُهَآ[2] إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى[3] حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) يُرَوِّعُهم: يُخِيفُهم.

(٢) فعلتُها: أي تلك الجريمة.

(٣) فَوَهَب لي ربي حُكْمًا: أعطاني القُدْرَة على حُسْنِ الرَّأي والْفَصْل في القضايا.

وكان «فرعون» رجُلًا ظالمًا، مُسْتَبِدًّا طاغيًا، تدينُ الأُمَّةُ المصريَّـةُ بعبادتِـهِ، وتُذْعِنُ بقداسـته، لا يقبلُ من إنسـانٍ تجـاوزًا أو تحدِّيًا؛ وقد فاجأَهُ «موسـى» بمـا لا يقبله ولا يرضـاهُ، وها هو يقفُ مِنْـهُ موقفَ النِّدِّ لِلنِّدِّ؛ بل أشـدَّ من ذلك وأقسـى؛ إِنَّهُ يطْلُبُ إليه أن يتنازلَ عن كُلِّ شـخصيَّتِهِ التي يحكُمُ بِهَا النَّاسَ والمُجْتَمَعَ.

وأراد «فرعونُ» بما جُبِلَ عليْهِ من عُلُوٍّ وَغَطْرَسَةٍ وَمَكْرٍ أن يُسَفِّهَ آراءَ «موسى» ودعوتَه، فسأله:

«وما ربُّ العالمين الَّذي تدعو إليْهِ يا «موسى»؟».

فقال «موسى» عليه السلام: «ربُّ السمواتِ والأَرْض وما بَيْنَهُما، الَّذي خلقَ كُلَّ شيءٍ وأَحْسَنَ خَلْقَه».

فنظر «فرعون» إلى مَنْ حَوْلَهُ من النَّاس، الذين كانوا في القصر يستمعون إلى الحوار ويُشاهدون آثارَه، مُظْهِرًا العجبَ، وقال:

«ألا تَسْتَمعون إلى ما يقولُهُ هذا الدَّعِيُّ المجنون؟».

فاستمرَّ «موسى» غيرَ مُبالٍ بما قاله «فرعون»، مُتَوَجِّهًا بكلامه إلى أولئكَ الشُّهود:

«ربُّكُم أَيُّها الْخَلْقُ، وربُّ آبائكُمُ الأَوَّلين قبْل أن يُولَدَ «فرعون» وقبْلَ أن يكونَ موجودًا أَوْ معبودًا».

فقال «فرعونُ»:

«أيُّها النَّاسُ إنَّ هذا الرجلَ لمجنون يَهْذِي بأقوالٍ وآراء لَمْ نَعْهَدْها ولم نعرفْها من قَبْلُ».

فاسْتَمَرَّ «موسى» قائلًا دونَ أدنى اهتمام:

«إن مـا أدعوكـم ونفسـي إلى عبادتِـهِ هو رَبُّ المَشْـرِقِ والمَغْـرِبِ وكُلِّ شـيءٍ في هذا الوجود، وليْـسَ عليْكُم في سـبيل ذلك إلَّا أن تُفكِّـرُوا وتُعْمِلُوا عُقُولَكُم، وأن تَرْفعوا عن عُيونِكم غَشاوَةَ الجَهْلِ».

ثم توجَّه «موسى» و «هارون» بالإنذار إلى «فِرْعَوْن» وملإِه قائلَيْن:

«ولقد أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ اسْتحْقاق الْعذابِ على مَنْ كَذَّبَ بآياتِ الله، ولم يَرْعَوِ عن غَيِّهِ وَجَهْلِهِ، وتولَّى عن طاعتِهِ والإِذْعانِ له، واسْتمرَّ فى الْعِنادِ والتَّصَلُّب، وهذا إنذارٌ من الله تعالى؛ فحذارِ من النار والعذاب الشديد».

فلم يأْبهْ «فِرْعون» لمقالتِهما، بل راح يَسْأَلُ:

«فَمَنْ رَبُّكُما يا «موسى»؟ وما هي أعمالُ هذا الإله؟ وما هي مِيزاتُه وصفاتُه؟».

فقال «موسى» عليه السلام:

«إنَّ إِلهَنا هو الذي أحصى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، فهو الذي أعطانا الحواسَّ والعقول، وخلق لنا ما في الأرض جميعًا، وجعلنا فيها خلفاء، وصَرَّفنا في خيراتها ومرافِقِها وما عليها من حيوان، واستخلفنا في كُلِّ ذلك، وهدانا إلى الانتفاعِ بكلِّ شيءٍ في مصالِحِنا، كُلٌّ فيما يَصْلُحُ لَهُ».

فَسَأَلَهُ «فِرْعَوْنُ» عن الأزمانِ الماضية وأحوالِ الشُّعوب والأُمَمِ فيها قائلًا:

«فما بالُ الْقُرُونِ الأولى؟».

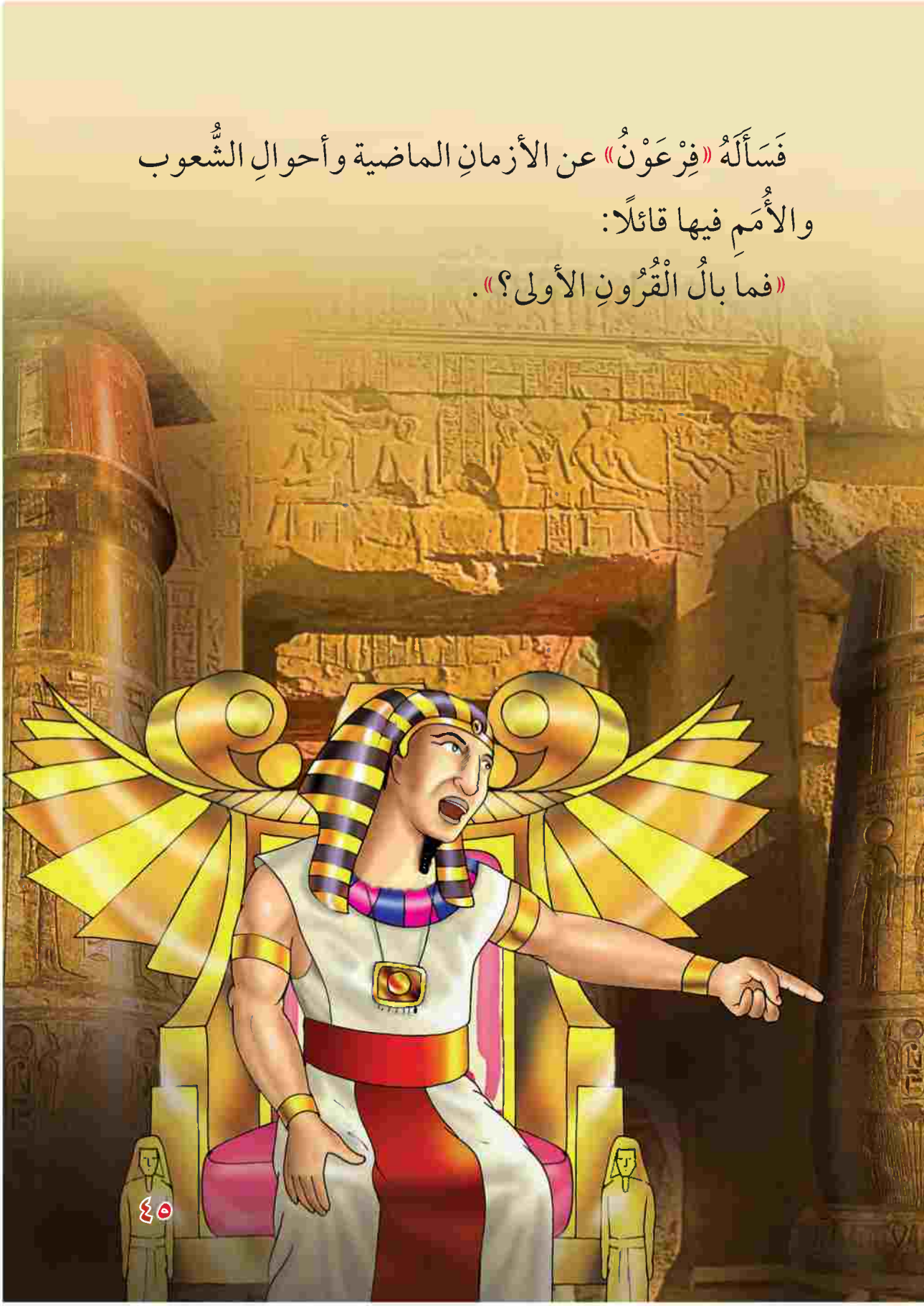

فقال «موسى» عليه السلام:

«عِلْمُها عندَ الله تعالى الذي يَعْلَمُ كُلَّ شأْنٍ من شؤونها؛ وأنَّ ذلك العلمَ في كتاب، ولا يضلُّ الله عن أعمالِهم، ولا ينسى منها شيئًا، وسيُحاسِبُ كُلَّ إنسانٍ بما صَنَعَ؛ وإنَّ من قُدْرَةِ هذا الإله أنَّه جعل لكم الأرضَ مُمَهَّدةً وخطَّ فيها سُبُلًا وطُرُقًا، كما أَنْزَلَ من السَّماءِ ماءً جعله سببًا لحياة الإنسان والحيوان والنَّبات؛ فكلُّ ذلك آياتٌ وعلاماتٌ يهتدي بها ذَوُو العقول السليمةِ إلى قدرةِ الله تعالى وعَظَمتِهِ».

هُنا شَعَر «فِرْعَوْنُ» بأنَّ «موسى» و «هارون» قد كسرا من هَيْبَتِهِ أمامَ النَّاس، وحطَّا كثيرًا من مقامِهِ ورُتْبَتِهِ، فأراد أن يستعيدَ ذلك، وأن يُخَفِّفَ من وَقْعِ وتأثير كلام «موسى» و«هارون» على القوم؛ وهُوَ يعْلَمُ قُدْرَتَه على استغفالِ النَّاس واسْتِجهالِهِم واللَّعِبِ بعقولهم وعواطفهم، فطلب إلى وزيره «هامان» أن يَطْبُخَ له الآجُرَّ[1] ثُمَّ يَبْنِيَ لَهُ صَرْحًا[2] ويُعْلِيهُ قَدْرَ ما يستطيع؛ لأَنَّهُ يريدُ أن يبلغَ أَسْبابَ السَّماء

(١) يَطْبُخَ الآجُرَّ: يُحْرِقُ الطُّوبَ ويُعِدُّه للبِنَاءِ.
(٢) صَرْحًا: بُرْجًا عاليًا.

ليطَّلعَ إلى إله «موسى» الذي يَدَّعيه كذِبًا وزورًا. ثُمَّ صَرَفَ «موسى» و «هارون» من عِنْدِهِ مُنْهيًا هذا اللِّقاء.

وحينَ تمَّ البناءُ ـ بناءُ الصَّرْح ـ صعد «فرعون» مع بعض حاشيتِهِ إلى أعلاه، ومن هُناك أَطْلَقَ سَهْمًا باتِّجاه السَّماء؛ ويبدو أن السَّهمَ في انطلاقتِهِ قد صادف طيرًا فَقَتَلَهُ وتَخَضَّب[1] سِنانُ السَّهم بالدَّم وسقط أَرْضًا؛ فالتُقِط؛ وقال «فرعون» للنَّاس:

(١) تَخَضَّبَ : تَلَطَّخَ.

«لقد قَتَلْتُ إلهَ «موسى»!!».

وهـذا أَقْصـى ما حاولَ «فِرْعَـوْنُ» أن يَسْـتَغْفِلَ فيه أفهامَ النَّاسِ وعُقولَهم.

ولكنْ لم يتوقَّفْ «موسـى» و «هارون» عند حَدِّ الحِوار الكلاميِّ مـع «فرعون» في الدعوة إلى الله؛ إِذْ تجاوزا ذلك إلى السِّـلاح الذي سـلَّحَ الله به «موسـى» مـن معجزات؛ ليكُونَ له الموقفُ الفصلُ والرأْيُ الحاسمُ.

٤

حَيَّةُ مُوسَى عليه السلام

الجزء الثالث

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟
يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ
أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾
قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ
أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الأعراف ـ الآيات (١٠٦ ـ ١٢٦).

اتِّهامُ «مُوسَى» بالسِّحْرِ

وإزاءَ إصرارِ «موسى» و«هارون» على مَوْقِفِهما، وثباتِهما على رأْيِهما، واستمرارِهما في مُقارَعَةِ «فرعون» ومُنازَلَتِهِ، لَمْ يجد بُدًّا من حَسْم الموقف؛ ولقد تصوَّر أَنَّه فيما سيطلُبُه إليهما سَيُعْجِزُهما فيتوقَّفان عن المُتابعةِ، فطلب إلى «موسى» أن يأْتِيَهُ بآيةٍ تدُلُّ على صِدْقِهِ في دعْواهُ بأَنَّهُ رسُولٌ من عِنْدِ الله.

فألقى «موسى» عصاهُ من يَدِهِ، فإذا هي ثُعبانٌ يَهْتَزُّ ويتحرَّك ويَسْعى، فتباعَدَ النَّاسُ الذين كانوا بحضرة «فِرْعون» خَوْفًا من الأذى، وتعالَتْ أَصْواتُهم بَيْنَ حَيْرَةٍ وتعجُّبٍ ودَهْشَةٍ؛ وجحظتْ عيْنا «فرعون»، وراحَ يُحَدِّق وهو صامِتٌ لا يتكلَّمُ ولا ينبسُ ببنتِ شَفَة[1].

ولاحظ «موسى» عليه السلام تأثيرَ ما فَعَلَ بأَمْرِ الله وتقديرِهِ وتدبيرِهِ، فأراد أن يكمِّلَ خُطُواته ويقضيَ على عَنَت «فرعون»

(١) لا يَنْبِسُ بِبِنْتِ شَفَة: لا تتحرَّكُ شَفَتاه بأيَّةِ كلمة.

وعِنادِه ومُكابرتهِ؛ فَوَضَعَ يَدَهُ في جيبه ثُمَّ أخرجها، فإذا هي بيضاءُ للناظرين، شديدةُ البياض، تَشعُّ بالنُّورِ كأنَّها كوكبٌ مُضيءٌ، فازدادت حَيْرَةُ الحاضرين، وأَغمضوا أَعيُنَهم خشيةَ أن يصابُوا بالعمى لِشِدَّةِ النُّورِ الباهر.

وعلى الرَّغْمِ من هذه الآياتِ البيِّناتِ التي عرضها «موسى» عليه السلام على الحاضرين، بَعْدَ أن تحدَّاهُ «فرعون» أنْ

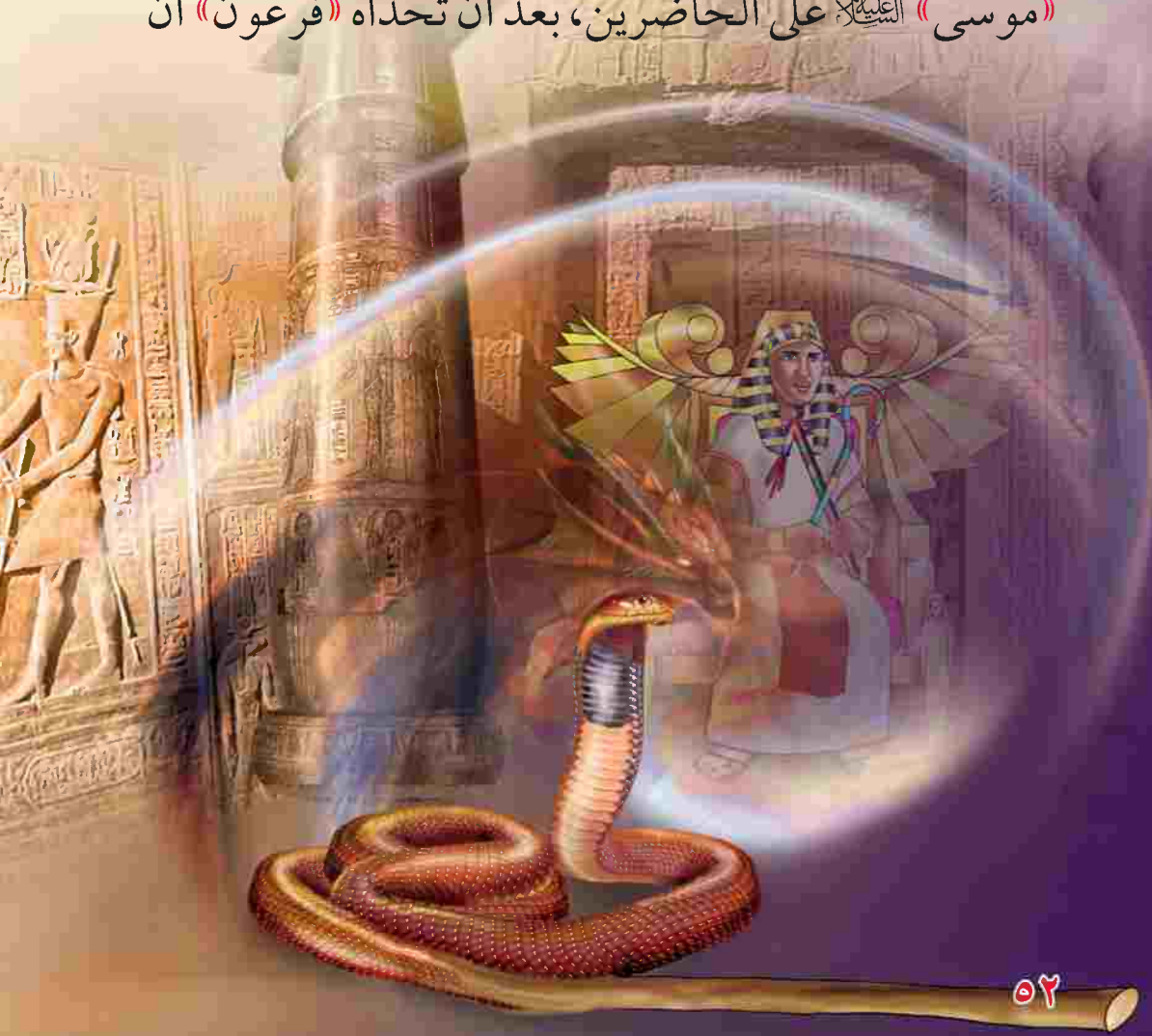

يأْتيَ بها؛ بالرَّغْمِ من ذلك فإن «فرعون» ومَلأَهُ نسبوا فعلَ «موسى» إلى السِّحْرِ وتمادَوْا في التكذيب؛ ثم تشاوروا فيما بَيْنهمْ وأعلنوا بعدَ ذلك مؤكِّدين أنَّ «موسى» ساحِرٌ عليم يريدُ أن يُخْرِجَهم من عقيدتِهم وإيمانِهم وأَرْضِهم.

ثم أشاروا على «فرعون» أن يحشدَ السَّحَرَةَ من أنحاء البلاد؛ ليُقارعوا «موسى» ويُنازِلوه، وما من شكٍّ أنهم سيغلبونه؛ كما طلبوا إلى «فرعون» أن يؤخِّر «موسى» إلى حينِ حضورِ أولئك السَّحَرَة، وإذا ما غلبوه فَقَدَ «موسى» كُلَّ حُجَّةٍ ودليلٍ، وَبَطَلَتْ دعواه؛ إذ الغرضُ أن يأتِيَ بشيءٍ لا يقدر غيرُهُ على الإتيان بمثْلِهِ، وإلا فإنَّه لا يُسمَّى «مُعْجزةً» تَدلُّ على صِدْقِهِ فيما يُبلِّغُ عن ربِّه.

حَشْدُ «فِرْعَوْنَ» السَّحَرَة

وأَرْسَلَ «فرعونُ» المُنادِينَ إلى مُدُنِ «مِصْرَ» وقُراها يُعلنون أنَّ الملك يأْمُرُ جميعَ السَّحَرَةِ بالحضُورِ إليه؛ وكانَ لِلسِّحْرِ في ذلك الحينِ شأْنٌ عظيمٌ في «مِصْرَ»، يُقَدِّرُهُ

الملوكُ والأمراءُ ويُعْنَوْن به، ويُكافِئون عَلَيْه مَنْ بَرَع فيه.

فحضر جمهورٌ عظيمٌ من هؤلاء، عرفوا ما طُلِبُوا من أَجْلِهِ، وكان كُلٌّ منهم مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، واثِقًا من قُدْرَتِهِ على السِّحْرِ والتصرُّفِ بالأشياء، والتَّحَايُلِ على النفوسِ والأرواح، والتأثيرِ في المُخَيِّلاتِ والعيون.

ولمَّا حضروا طلبوا من «فرعون» أن يُكافئَهم ويَجْزِيَهم على جهودِهم، فَوَعَدَهُم بالأَجْرِ الجزيلِ والجزاءِ الكبير والثوابِ المادِّيِّ العظيم.

وتواعد الفريقان على زمان المُبارَزَةِ ومكانها؛ وكان الموعدُ «يَوْمَ الزِّينة» وهو يومُ «وفاء النيل»، أعظمُ أعياد الفراعنة وأجلُّها قدرًا ومكانةً؛ لأنَّ فيضانَ النيلِ بالماءِ يحملُ في طيَّاتِهِ الخيرَ الكثيرَ للأرضِ الطَّيبة.

واجتمع النَّاسُ من كُلِّ مكانٍ؛ ليُشاهدوا انتصارَ سَحَرَتِهم على «موسى»، وتوافدوا

مـن كُلِّ حَدَب وَصَـوْبٍ[1]، واكتـظَّ بهم المـكانُ، وجاء «فرعون» تُحيطُ به أُبَّهَةُ المُلْكِ وَعَظَمَةُ السُّـلطان؛ واتَّخَذَ مكانَهُ عـلى مِنَصَّة عاليةٍ وحَوْلَهُ حاشـيتُهُ وجندُه؛ وأُحْضِر السَّـحَرَةُ؛ وجاء «موسـى» و«هـارون»؛ واكتملتْ صورةُ المشهدِ العظيم.

(١) من كل حَدَب وَصَوْبٍ : من كل جهة ومكان.

إِلْقاءُ السَّحَرَة

وقالَ السَّحَرة لِـ «موسى»:

«هل تُلْقي بِسِحْرِك أَوَّلًا أَوْ نُلْقي نَحْنُ؟».

فقال لهم «موسى»:

«بل أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُون».

وكان هذا تدبيرًا من الله تعالى وحِكْمَتِهِ في أن يكونَ السَّحَرةُ أَوَّلَ الـمُلْقِين؛ ولِيَمْحُوَ بقُدْرتِهِ خِداعَهُم ومكْرَهم.

وكانت عُـدَّةُ السَّـحَرة حبـالًا وعِصِيًّا يجـرُّون بعضها ويحملون الآخر؛ فألْقَوْهَا فامْتَلأ المكانُ حيَّاتٍ وثعابين، وخُيِّل لـ «موسى» أنها تتلوَّى فوقَ الثَّرى.

وَضَجَّ المـكانُ بالهُتـاف والصِّياح، وابتهـج «فرعون» وجنـودُه وعِلْيَـةُ القـوم، وأيقنـوا جميعًـا أنَّ السَّـحَرَة قد نجحوا فيما قامُوا به، وأنَّ «موسى» لن يتمكَّنَ من الإِتيانِ بشـيءٍ أعظمَ من سِحْرِهم، فهُوَ لا يحملُ بيده غيرَ عصاه؛ وإذا انقلبـتْ حيَّـةً - كمـا فعل سـابقًا - فهيَ واحـدةٌ أمامَ

المئاتِ والآلاف التي غصَّ بهـا المكانُ على رحابتِهِ؛ فما هي صانِعةٌ؟ وماذا يصنعُ «موسى»؟!

والواقعُ أنَّ «موسـى» عليه السلام قـد هالَهُ في تلك اللحظة أمْرُ تلك الحيَّات والثعابين، وشعر بالخوف يَسْري في أوْصاله

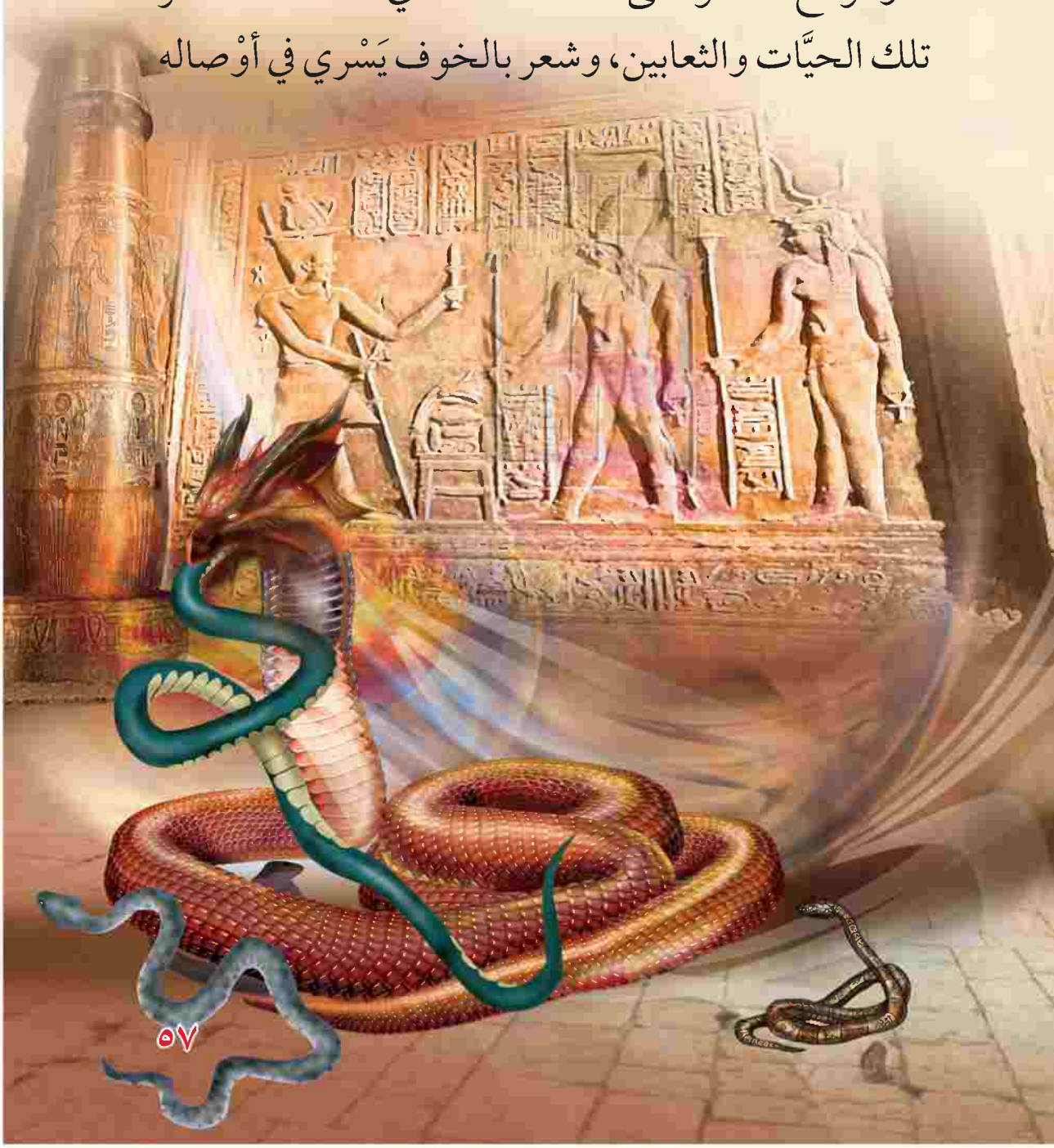

وأنحاء جسمه؛ وبأنَّ قلبَه يَخْفقُ في صَدْرِهِ ويُعَرْبدُ خوفًا من الفَشَل.

عندئذٍ ثَبَّتَه الله تعالى على الإيمان بأَنَّه الأعلى، وبأنه سيفوزُ وينتصرُ عليهم جميعًا، وأَمَرَهُ أن يُلْقِيَ عصاه فألقاها، فإذا هي حيَّةٌ ضخمةٌ تسعى، وإذا هي تبتلع حياتِ السَّحَرةِ وبِسُرْعةٍ حتى أتتْ عليها، ولم يَبْقَ في الحَلْبَةِ غيرُها! ووقع الحقُّ وبطلَ سِحْرُ السَّحَرة.

إِيمانُ السَّحَرَةِ

ودُهِش الحضورُ، وعادَ المكانُ هادئًا بعد أن كان صاخبًا، وأَلْجَمَتِ المفاجأةُ أفواهَ الجميع؛ «فِرْعَوْنَ» وقَوْمِهِ؛ وعَلِمَ السَّحَرَةُ أنَّ السِّحْرَ لا يفعلُ مثل ذلك، وإنَّما هي قُوَّةٌ أكبرُ وأعظمُ من أية قُوَّةٍ على وَجْهِ الأرض؛ ولا شكَّ في أنَّها قُوَّةُ الله تعالى، فخرُّوا[1] ساجدين، وقالوا:

﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾!

(١) خَرُّوا: نزلُوا.

وَفَضَّلوا توبتَهم وإيمانَهم على الأجرِ الذي وعدَهم به «فرعون» ومنَّاهم به؛ مستهينين بالعقابِ الذي سَوْفَ يَتَهدَّدُهم، أو يُوقِعُهُ بهم.

وأدرك «فرعون» أَنَّهُ قد أُسْقِطَ في يَدِهِ، وأَنَّه لن يُعْجزَ «موسى» بعد ذلك، فأراد أن يُداريَ الموقفَ؛ فَصَرَخَ في السَّحرة قائلًا:

«لا شَكَّ أن «موسى» هو كبيرُكم الَّذي علَّمكم السِّحرَ؛ لهذا غلب سِحْرُهُ سِحْرَكُم».

قال هذا وهو يعْلَمُ عِلْمَ اليقين بأنَّه لا صِلَة على الإطلاقِ ـ من قريب أو بعيد ـ بينَ «موسى» وبينَ هؤلاء السَّحرة، ولكنها حيلةُ العاجز، ومُداراةُ المقهورِ المغلوب.

تَعْذِيبُ السَّحَرَةِ وقَتْلُهُمْ

ثم أَخَذَ «فرعون» بالتَّجني على أولئكَ السَّحرةِ ويقولُ لهم: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

ليُوهِمَ الجمعَ الحاضرَ بأنه لا يزال هو الإله الْملِكُ الذي يتصرفُ في أقدارِ الناسِ وأعمارِهم وأرزاقِهم ووجدانِهم.

ثم هدَّدهم بقطع الأيدي والأَرْجل من خِلاف، والتَّصْليب على جُذوع النَّخْل؛ فردُّوا جميعًا بأنهم لا يَثنيهم عن الإيمانِ بالله تعالى تهديدٌ أَوْ وعيد.

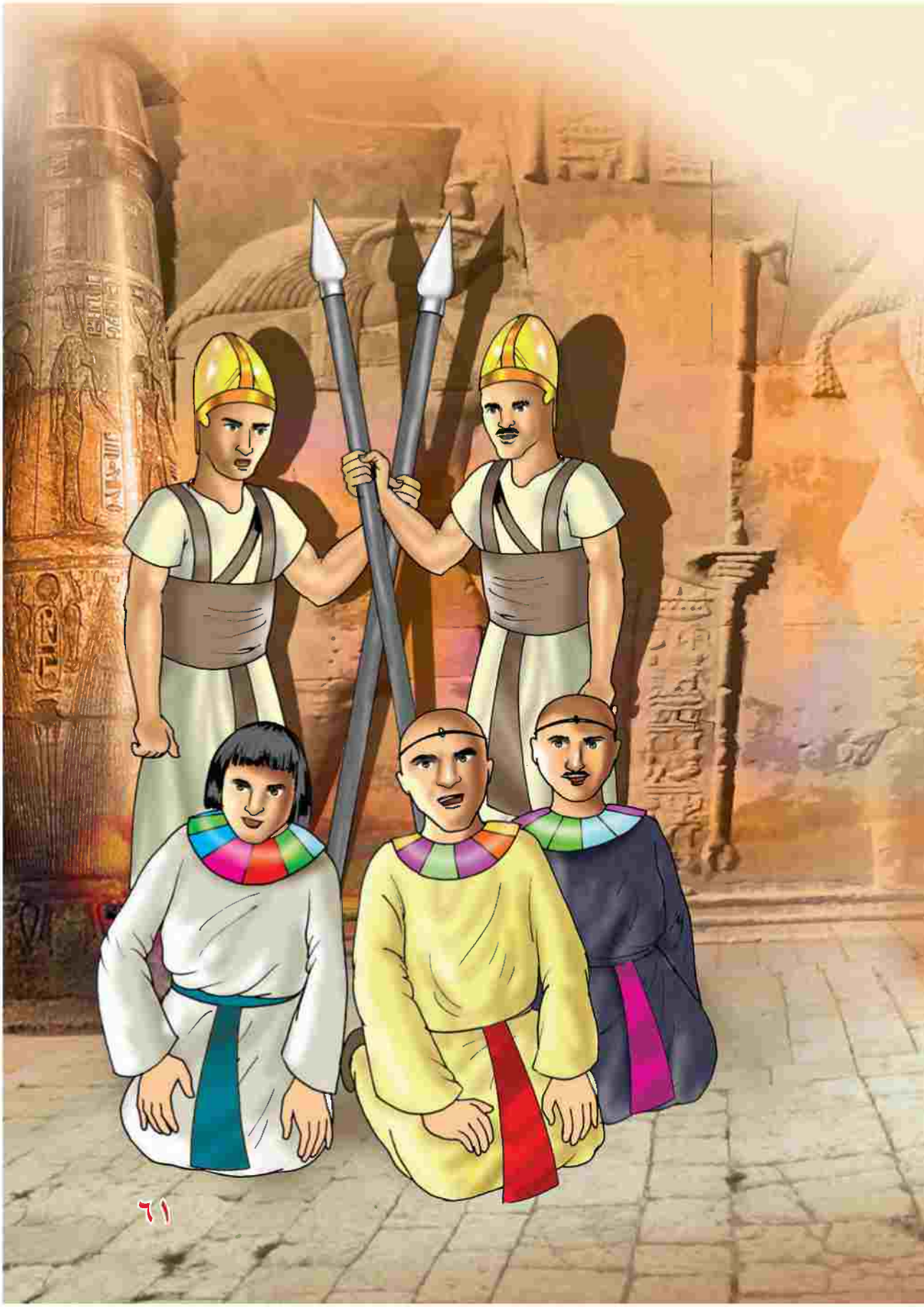

وانفضَّ[1] الجَمْعُ، وسيق السَّحَرَةُ إلى السُّجون يذوقون من العذاب ألْوانًا، ولكنَّهم لم يتزحزحوا قِيدَ أُنْمُلَةٍ عن الإيمان؛ ونَفَّذَ فيهم «فرعون» تهديدَه؛ فقطَّع أيديَهم وأَرْجُلَهُمْ من خِلاف، وصلَبَهُم على جُذوعِ النَّخْلِ؛ ليكونوا عِبْرةً لغيرِهم، إلا أنَّ تلك الأعمالَ الوحشيَّةَ القاسيةَ والتهديدات الرهيبةَ لم تمنعْ فريقًا من النَّاس أن يؤمنوا بربِّ «موسى» ويتَّبعوه في دَعْواه.

ولكنَّهم كتموا إيمانَهم واستخْفَوْا به، وأخذوا يَلْقَوْنَ «موسى» من وراءِ حجاب، وكان أكثرُهم فتْيانًا في ريْعان الشباب.

وكان «موسى» عليه السلام حتى ذلك الحينِ يعتقدُ أنَّ طُغْيَانَ «فرعون» ومَلَإِهِ، وامتناعَهم عن الإيمانِ به، سببُه أنَّ الله تعالى أَغْدَقَ عليهم الأَموالَ في الحياة الدُّنيا، ومتَّعهُم بلذائذِ العيْشِ، فقستْ قلوبُهم، وظنُّوا بقاءَ ذلك النعيم ودَيْمُومَتَهُ[2]، فتمادَوْا في طغيانهم، ولم يُصْغُوا إلى العِظاتِ

(١) انفضَّ: تَفَرَّق.
(٢) دَيْمُومَته: عَدَم فَنائِه.

التـي يحملُهـا إليهم «موسـى» عليه السلام بُكْـرةً وعَشِـيًّا، فدعا عليْهم أن يَسُدَّ الله تعالى طريقَ هدايتهم، ويُقَلِّلَ ما بأيديهم من المالِ الذي هو سـبَبُ طُغيانِهم وإسرافهم في أَمْرهم، وأن يشُـدَّ على قلوبِهـم ويُبْعِدَهم عن طريق الإيمان إلى أن ينزلَ بهمُ العذابُ الأليمُ.

وأَمَرَ الله تعالى نبيَّهُ أن يتَّخذَ للمؤمنين الذين اتَّبعوه بيوتًا للعِبادةِ والصَّلاةِ يؤدُّون فيها مناسِكَهُم.

وأضحى مجتمعُ «مِصْرَ» فريقيْن: فئة قليلة مؤمنة؛ وفئة كثيرة كافرة ناكرة.

٥

حَيَّةُ مُوسَى عليه السلام

الجزء الرابع

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيات (١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) سورة غافر ـ الآيتان (٢٦ ، ٢٧).

الْمُؤَامَرَةُ لِقَتْلِ «مُوسَى»

اجتمع «فرعونُ» مع مُسْتَشاريه وأربابِ السُّلطةِ عنده؛ ليضعوا خُطَّةً يَتَخَلَّصون بها من «موسى»، ومن فتنتِهِ للناسِ عن دينِهم على حَدِّ زعْمِهِم.

ولم يكنْ «فرعونُ» بحاجةٍ إلى من يُوغِرُ صَدْرَه[1] من مُساعديه على «موسى»؛ فقد كان هو نفسُه يَتَميَّزُ[2] غيظًا وحَنَقًا من هذا الرَّجلِ الذي يكادُ يقضي على سلطانِهِ؛ والذي هَزَّ هزًّا عنيفًا صُورَةَ هيبته في نفوسِ أتباعه.

وبينما كان المُؤْتَمِرُونَ يتبارَوْنَ[3] في إلقاء الكلماتِ التي تجيش بالحقدِ الأعمى؛ كان هناك رجلٌ من المُقَرَّبين إلى «فرعون» ومن آله يُؤْمنُ بدعوةِ «موسى»، ولكنَّه يكتُمُ هذا الإيمانَ ويُخْفيهِ، فلمَّا رأى بأن الأمرَ جِدٌّ لا مُزَاحَ فيه؛ وبأن مرحلةَ تنفيذ المؤامرة ـ وهي قتل «موسى» ـ توشكُ أن تتمَّ،

(١) يُوغِرُ صَدْرَه : يَمْلَؤُه بالغَيْظِ والحِقْدِ.
(٢) يَتَميَّزُ : يتوقَّد ويتلهَّب ويتقطَّع.
(٣) يَتبارَوْنَ : يتنافَسُونَ.

كشـف عن وَجْهـهِ القناع، وأسْـفَر عن الإيمـان، ودافع عن «موسى» دفاعًا مجيدًا، وأبْلى فيه بلاءً حسنًا؛ وبيَّن للحاضرين بِأَنَّهُ لا ينبغي لهم أن يقتلوا رجلًا لأَنَّه يقولُ: إن الله ربي وربُّكم فاعبدوه، هذا صراطٌ مستقيم؛ لأن قولَهُ هذا ليس سببًا للقتل، وخاصةً إذا كان قد جاءنا بالآياتِ الدالةِ على صِدْقِهِ كما فعل، ولو افترضنا أنه كاذبٌ فيمَا يقولُ لم يَنَلْنا ضررٌ من كذبه، ولا نحملُ شـيئًا من إثمِهِ وافترائِهِ، ولو فَرَضْنا أنه صادقٌ في قَوْلِهِ ـ وهـو الصحيح ـ لأصابنا بعضُ الوعيـدِ الذي تَوَعَّدَنا به إن نحن أَصْرَرْنا على مُجابهتِهِ والتنكُّر له.

لم يَتْرُكْ «فِرْعَونُ» هذا الرَّجُلَ الذي يدافع عن «موسى» يسترسلُ في دفاعه؛ بل عارضه في أقوالِهِ وآرائه، ثم التفت إلى الحاضرين يقول لهم:

«إنني لا أَقْبَلُ لكم أن تَرَوْا رأْيًا غَيْرَ رأْيي، وإني لعلى ثقةٍ بأَنني أَهديكم سبيلَ الرشاد وأخطُّ لكم الطريقَ القويم».

فعاد مؤمن آل فرعون إلى الكلام يُحَذِّرُ قَوْمَه وعَشـيرَتَه مـن بـأْسِ الله تعالى، وضَـرَبَ لهم مثلًا عِقـابَ الله في أُممٍ

خَلَتْ، أمثال عاد وثمود وقوم نوحٍ وغيرهِم.

ثم ذكَّـر الحاضرين بأنَّ الدَّعْوةَ الَّتِي جاء بها «موسـى» ليسـتْ جديدة، فقد جاء إلى آبائهـم وإلى أجدادهم بمِثْلِها «يوسف» عليه السلام، فلم ينلْ تصديقَهم؛ حتى إذا توفَّاه الله إليه قالوا: لن يَبْعثَ اللهُ من بَعْدِهِ رسُولًا.

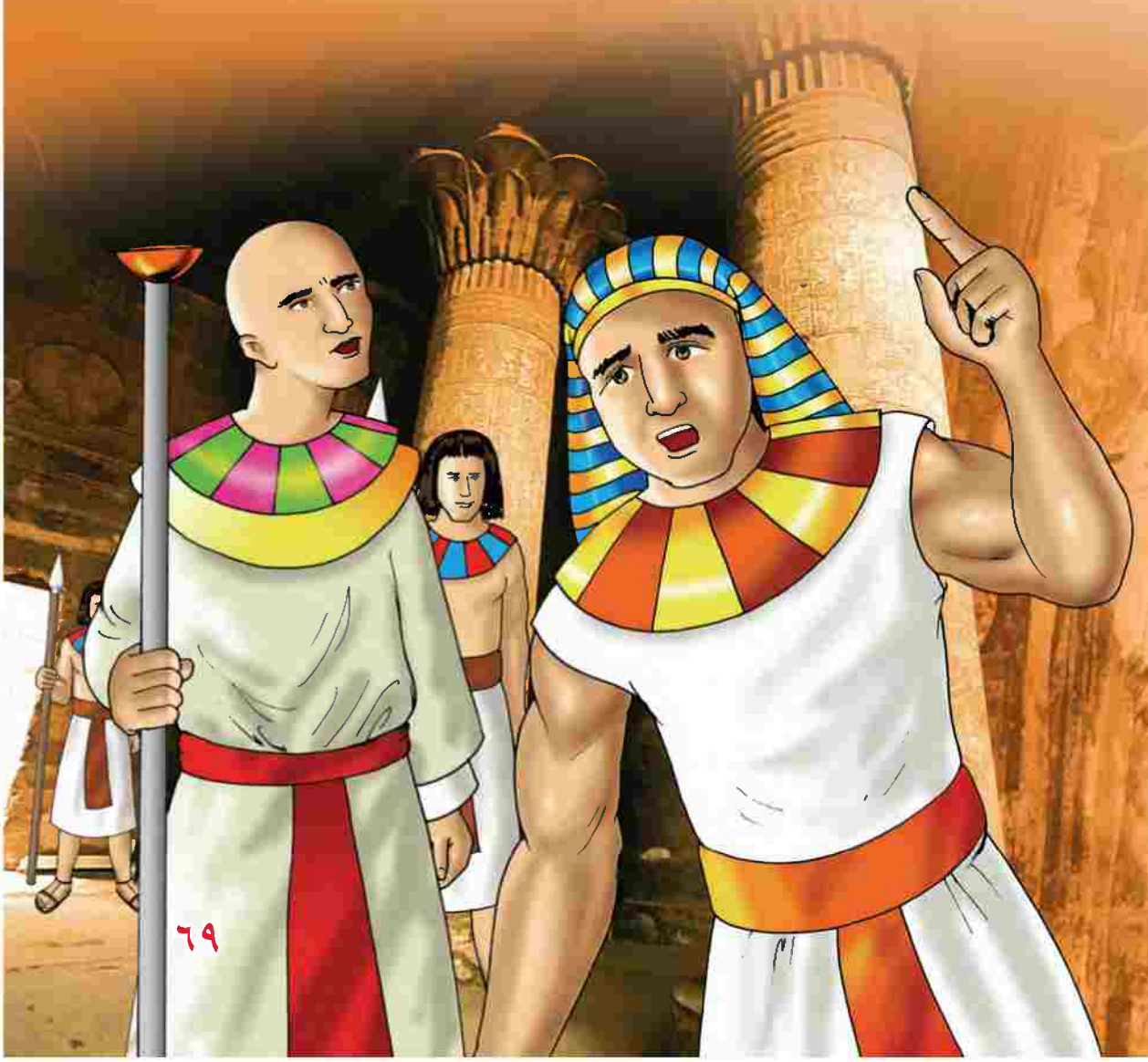

أمَّـا صُدُودُكُـمْ أنتم عـن الهِدَايَةِ فهو مـن الضلالةِ التي ارتضيتموها لأنفُسِكم، فزادكُم الله ضلَالَةً على ضلالة.

واعلموا يا معشرَ النَّاس بأنَّ الله تعالى لا يُهْمِلُ الحسناتِ ولا السَّـيئاتِ، بل يُجازي على كُلِّ شـيء؛ فالمؤمنون لهم الجنَّـاتُ يُرزَقون فيها بغيرِ حسـاب؛ وأما الكافرون فلهم جهنَّمُ يَصْلَوْنَها وبئسَ المِهاد.

لكنَّ القومَ تمادَوْا في كُفْرِهِم وعِنادِهم، وأصرُّوا واستكبروا استكبارًا، وحاول أحَدُهم أن يَرُدَّ هذا المؤمنَ إلى ديـن «فرعون»، دين الآباء والأجداد، باللِّينِ تارةً وبالتهديد تارةً أُخرى، فلم يُفْلِحْ؛ بل أجابَهُ هذا المؤمنُ بلسانٍ ثابتٍ وقلبٍ مطمئن:

«يا عجبًـا لكم؛ إنني أريدُ لكم السَّـعادةَ وتريـدون لِيَ الشَّـقاءَ، أنـا أدعوكـم إلى الإيمـان وأنتم تدعونني إلى الكُفْر. إن آلهَتَكُـم التـي أَنْتُم لها عاكفـون[1] لا

(١) عاكفون : ملازمون.

تنفعُ في الدُّنيا ولا تشفعُ في الآخرة، والأمْر كُلُّه لله الواحدِ القهَّار، وسيأتي عليكُم وَقْتٌ تذكرون فيه ما نَصَحْتُ لكم، أمَّا أنا فإني أُفَوِّض أمري إلى الله».

ثم غَادَرَهُم، فَلَحِقَ به نَفَرٌ منهم يريدون قَتْلَهُ، ولكنَّ الله تعالى نجَّاه من كيْدِهِم ومكْرِهم؛ إذ أَحَسَّ بهم ففرَّ هارِبًا إلى «موسى» وأَنْبأَهُ نَبأَ القوم.

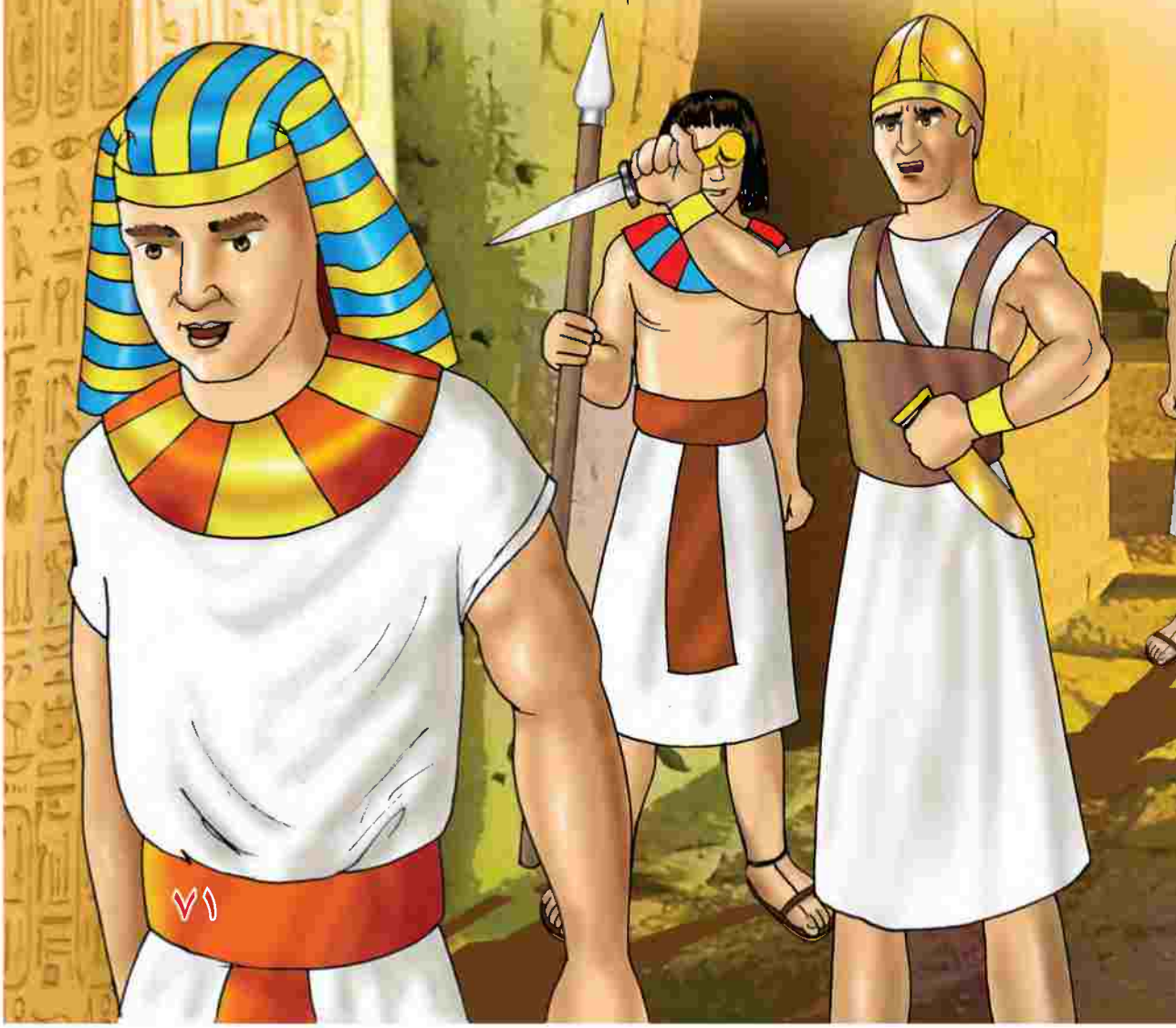

وبهذا ضاعت الخطةُ المُؤامرةُ التي كان «فرعونُ» وقومهُ يحيكونها[1] للقضاء على «موسى»؛ وطاشتْ سهامُهمْ.

اِسْتِخْفافُ «فِرْعَوْنَ» بشَعْبِهِ وبـ «مُوسَى» عليه السلام

كان «فرعونُ» مُعْتدًّا بنفسه، مُعْتَزًّا بسلطانه، مغرورًا بما لَـهُ من وافرِ الثـروةِ التي تعطيها له «مِصْـرُ» ونيلُها العظيمُ الفيَّاض الذي يُمدُّها بالحياة.

فكان لا يرى الخَيْر والعِزَّ إلا في وَفْرةِ المال وواسع الثراءِ، فأراد أن يتَّخِذَ ذلك سبيلًا إلى إثارة نفوس النَّاس، وتأليبهم على «موسى» الفقير الَّذي لا يملكُ شيئًا، فكان يقولُ لهم:

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ[2] وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾.

كان يقولُ لهم ذلك، وهو لا يعرف أنَّ الله تعالى يختصُّ برحمتِهِ وفضلِهِ من يشاء، وأنَّ الغِنَى عَرَضٌ زائلٌ لا يعدِلُ شيئًا في ميزان الحقِّ سُبْحانه.

---

(١) يَحيكُونَها: يُدَبِّرونَها.

(٢) مهينٌ: حقير.

وكما كان «فرعونُ» مُسْتَخِفًّا بموسى عليه السلام كان أيضًا مُسْتَخِفًّا بقوْمِهِ؛ يزدري عُقولَهم، ويَسْتَغْفِلُ أفهامَهم وحُلُومَهم، فأصبحوا لَدَيْه أَطْوَعَ من السَّائِمَة[1]، يُوَجِّهُهُم

(١) السَّائِمَة : البَهائِم.

كما يشاء، وأَنَّى يشاء؛ وبلغ من غُرورِ «فِرْعون» واستخفافِهِ بقوْمِهِ أَنْ جمعهم عِنْدَه من آفاقِ البلادِ، ونادى فيهم قائلًا: «أنا ربُّكُم الأَعْلى (الذي يجبُ أن تخصُّوهُ بالعبادَةِ دون إله «موسى» الذي جاءنا على جَهْلٍ مِنَّا بِهِ)!!».

جَزَاءُ الْمُكَذِّبِينَ

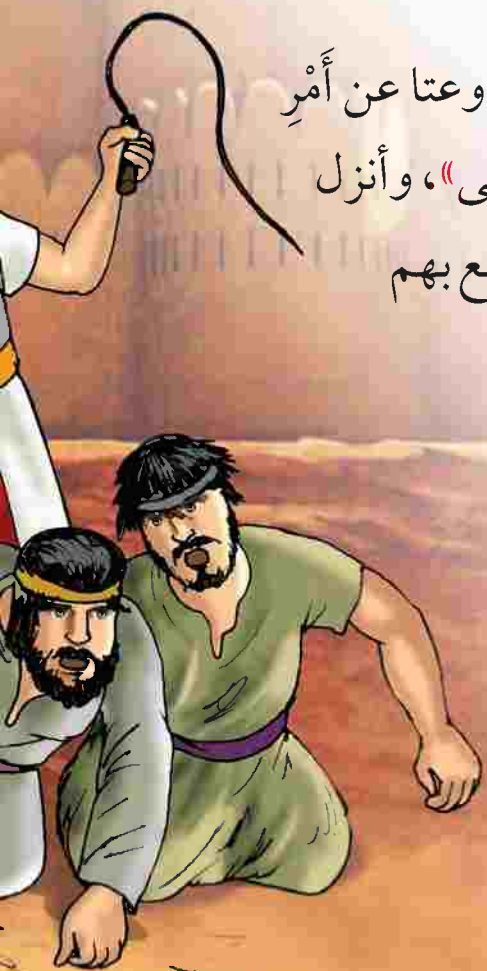

لقد أخذت «فرعونَ» العِزَّةُ بالإثم، وعتا عن أَمْرِ الله تعالى، وتمادى في تكذيب «موسى»، وأنزل ببني إسرائيلَ أَشدَّ أنواعِ العذاب، وأوْقع بهم كُلَّ أصنافِ الإذلال والإهانة.

عندئذٍ أمَر الله تعالى نبيَّهُ موسى عليه السلام أن يُنْذِرَ «فرعون» وقومَهُ بأَنَّهُ سوف يُوقِعُ بهم العذابَ الأليم؛ جزاءً لهم على تكذيبهم وامتناعهم من إطلاقِ بني إسرائيل،

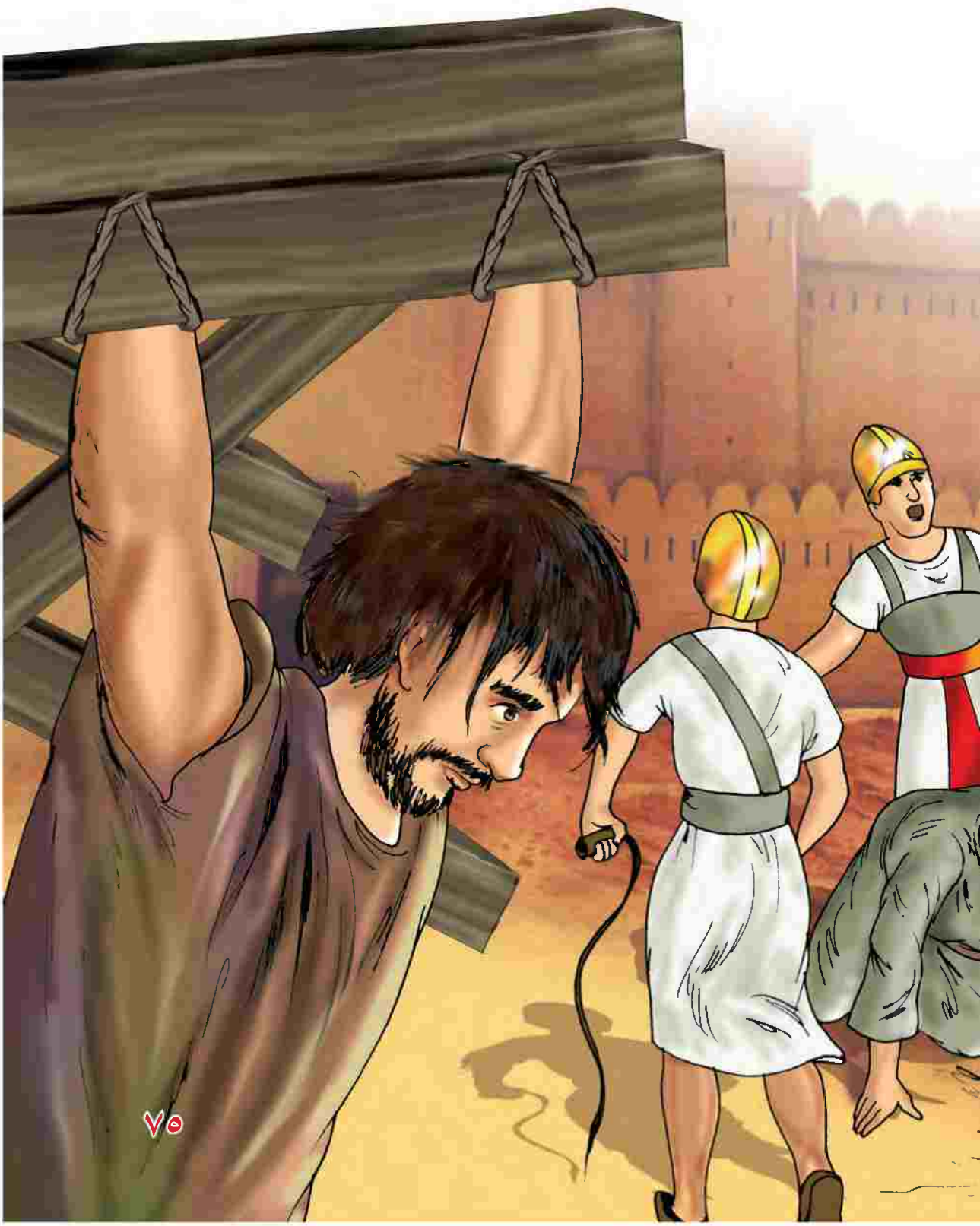

وتَرْكِهم يرحلون بعيدًا عن «مِصْرَ» وعن سلطانِ «فرعون» ليعبُدوا ربَّهم.

فلم يأْبه[1] «فرعونُ» لهذا الإنذار، وبدأَ عذابُ الله تعالى يتتابعُ عليهم؛ من الجدْب، إلى النَّقْصِ في الثمراتِ، إلى الطوفان الذي أغرق مزروعاتِهم وقضى على العديدِ منهم، إلى الجرادِ الذي أكل الأخضرَ واليابس، إلى القُمَّل الذي أقضَّ مضاجعَهم ومَنَعهم من لذَّة الرُّقاد وهَنِيءِ النَّوْم، إلى الضَّفادِع التي نَغَّصَتْ عليهم هدوءَ حياتهم في الليل والنهارِ بنقيقها المتواصل، إلى الدَّمِ حيث أُصيبوا بالرُّعاف وتدفُّقِ الدَّمِ من أُنُوفهم، إلى مَحْقِ أموالِهم، إلى الأمراضِ التي تفشَّت فيهم وأقلُّها الْبَرَص.

وكانوا إذا ما نزل بهم قِصاصٌ أو عقابٌ جاؤوا إلى «موسى» تائبين مُسْتغفرين؛ فيدعو ربَّهُ أن يكشفَ عنهم البلاءَ، ويرفَعَ عنهم الجزاء؛ فيعودوا إلى أَشَدِّ مما كانوا عليه من العَنَت، وأقسى مما كانوا عليه من الظُّلْم؛

---

(١) يَأْبَه: يَهْتَمّ.

وينكصوا على أعقابهم[1]، وينكثوا بعُهودِهم ومواثيقهم.

وأخيرًا... لم يجد «فِرْعَوْنُ» بُدًّا من إطلاق بني إسرائيل، وترْكهم يرحلون عن «مِصْر» بقيادةِ «موسى» عليه السلام؛ تخلُّصًا من الشرورِ والآثام.

وانطلق «موسى» ومَعَه بنو إسرائيلَ باتِّجاهِ فلسطين بناءً على أَمْرٍ تلقَّاه من ربِّه تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾.

وكان عليه السلام يتوقَّعُ أن يلْحقَ به «فرعونُ» وجُنودُه؛ ولكنَّه كان واثقًا من حمايةِ الله ونُصْرتِهِ لعبادِهِ المؤمنين، فمضى في طريقهِ لا يخشى شيئًا.

وشعر «فرعونُ» بالنَّدم لإرساله بني إسرائيل مع «موسى»، فأرسل في أنحاءِ البلاد يَسْتَدْعِي جُنْدَهُ وأَشْياعه، فجمع جيشًا عظيمًا، ولحِق بـ «موسى» وبني إسرائيل؛ ليَرُدَّهم إلى عُبوديَّتِهِ وأَسْرِهِ، وكانوا قد وصلوا إلى ساحلِ

(١) يَنْكُصُون على أعقابِهم: يَرْتَدُّون ويرجِعُون عمَّا عزَموا عليه.

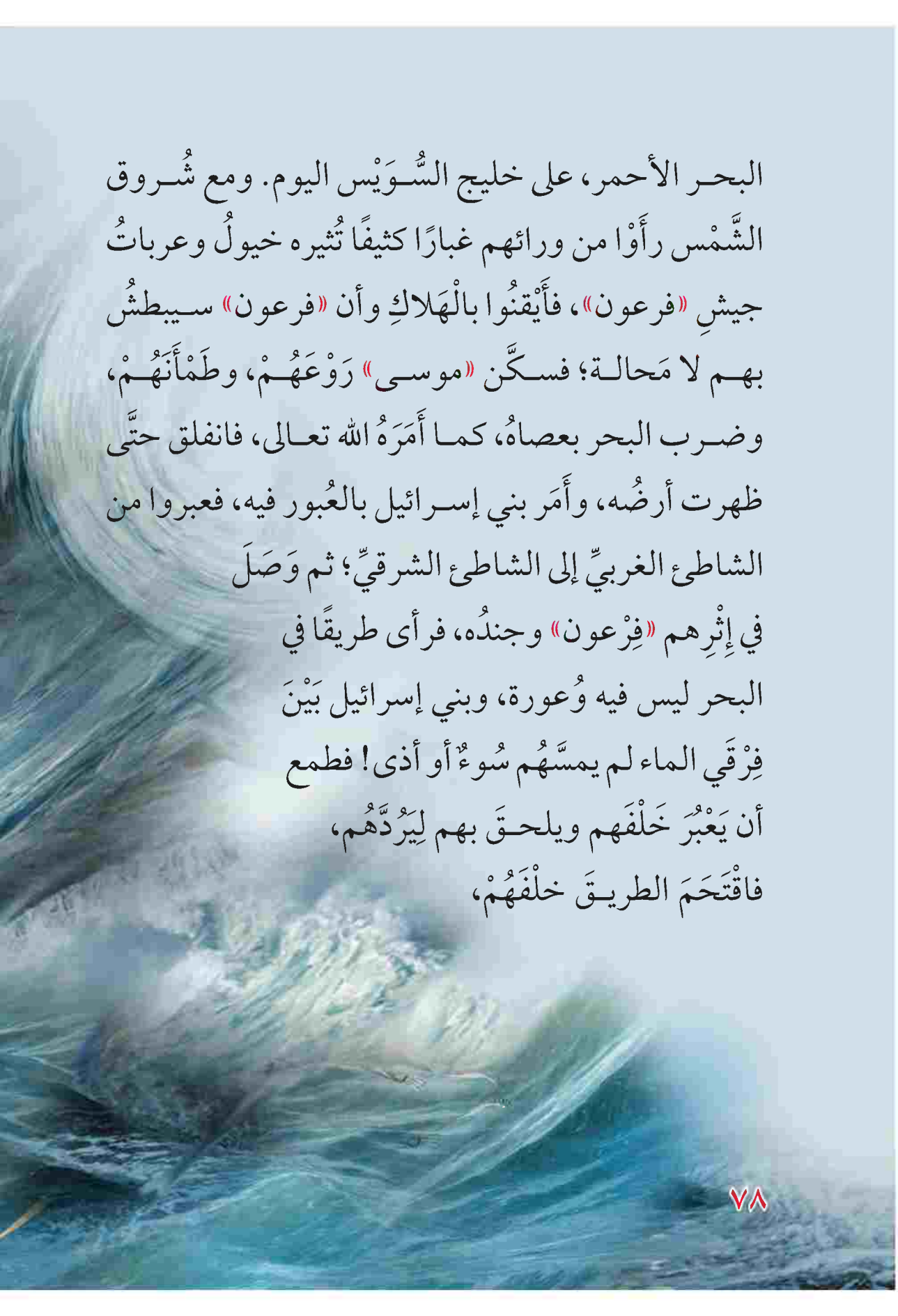

البحـر الأحمر، على خليج السُّـوَيْس اليوم. ومع شُـروق الشَّمْس رأَوْا من ورائهم غبارًا كثيفًا تُثيره خيولُ وعرباتُ جيشِ «فرعون»، فأَيْقنُوا بالْهَلاكِ وأن «فرعون» سـيبطشُ بهـم لا مَحالـة؛ فسـكَّن «موسـى» رَوْعَهُـمْ، وطَمْأَنَهُـمْ، وضـرب البحر بعصاهُ، كمـا أَمَرَهُ الله تعـالى، فانفلق حتَّى ظهرت أرضُه، وأَمَر بني إسـرائيل بالعُبور فيه، فعبروا من الشاطئ الغربيِّ إلى الشاطئ الشرقيِّ؛ ثم وَصَلَ في إِثْرِهم «فِرْعون» وجندُه، فرأى طريقًا في البحر ليس فيه وُعورة، وبني إسرائيل بَيْنَ فِرْقَي الماء لم يمسَّهُم سُوءٌ أو أذى! فطمع أن يَعْبُرَ خَلْفَهم ويلحـقَ بهم لِيَرُدَّهُم، فاقْتَحَمَ الطريـقَ خلْفَهُمْ،

فلمَّا جاز بنو إسـرائيل البحرَ وبلغوا الضَّفَّةَ الشرقيَّةَ، ولم يبقَ أَحَدٌ منهم بين المياه المُنْحَسِرةِ؛ وقد أصبح «فرعونُ» وجنودُه وسـط البحر، انطبق الماءُ عليهم من كُلِّ جانب، فغرقوا جميعًا ولم يَنْجُ مِنْهُم أَحَدٌ.

وأراد «فرعونُ» أن يَدْفَعَ عن نَفْسِهِ الْغَرَق، فَأَخَذَ يُرَدِّدُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ولكـنْ هيهاتَ هيهاتَ؛ فقد سَـبَقَتْ كلمةُ الله تعالى على الكافرين، وحقَّتْ على المنافقين.

٦

بَقَرَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(١) سورة البقرة ـ الآيات (٦٧ ـ ٧٣).

كان في «بني إسرائيل» ـ أيامَ سيِّدِنا «موسى» عليه السلام ـ رجُلٌ غنيٌّ كثيرُ المال، عظيمُ الثَّرْوة؛ يملكُ المواشيَ العديدةَ من الأبْقارِ والأَغْنام والإِبل؛ ويَمْلكُ الأراضيَ الواسعةَ الخِصْبَة.

ولم يكن عنده من الأولاد سوى صبيٍّ واحد؛ يحبُّه محبَّةً عظيمة، ويخافُ عليه خوفًا شديدًا، ويُدَلِّلُه ويُحقِّقُ له كُلَّ طلباتِهِ.

وكان لهذا الرَّجُلِ الغنيِّ ابنُ أخ شِرِّيرٌ، فاسدُ الخُلُق، يطمعُ في ثروة عَمِّه ومالِهِ؛ لهذا أرادَ التخلُّصَ من ابن عَمِّهِ بِقَتْلِه؛ ليكونَ هو الوارثَ الوحيدَ بعد ذلك.

وفي يَوْمٍ من الأَيَّام ترصَّدَ(١) لابن عمِّه في طريق عَوْدتِهِ عند ضاحيةِ البلد، فهاجَمَه وقَتَلَهُ، ولم يَشْعُرْ بهِ أحَدٌ من النَّاس.

حَزِنَ الأبُ لوفاةِ ابنِهِ حُزْنًا شديدًا، وبكى لفراقِهِ بُكاءً مُرًّا.

ثم اتَّهَمَ أَهْلَ الضَّاحيةِ التي وُجِدَتِ الجُثَّةُ بالقُرْبِ مِنْهُم

(١) تَرصَّدَ: كَمَنَ، وترقَّب يريد الشَّرَّ.

بأَنَّهُم هُم الذين قَتَلُوه؛ ولكِنَّ هؤلاءِ الأبرياءَ أنكروا الأمرَ... وأَصَرُّوا على الإنكارِ؛ وألْقَوُا التُّهَمةَ على غَيْرِهم.

عندئذٍ خَشِيَ الوالدُ على ضَياع حَقِّهِ في مَعْرِفَة قاتِلِ ابنه؛ وكذلك أهلُ الرَّأيِ من المواطنين، فجاؤوا إلى سيِّدِنا «موسى» عليه السلام وطلبوا إليه أن يحْسِمَ الأَمْرَ، ليحقِّق في الموضوع ويعطي حُكمَهُ العادل.

فطلب إليهم سيِّدُنا «موسى» أن يأْتوهُ بِبَقَرةٍ فيذبحوها؛ ثم يبيِّنُ المجرمَ من البريءِ.

تعجَّب القومُ من طلب «موسى» عليه السلام لأَنَّه غريب؛ فكيف يمكنُهُ أن يعرفَ القاتلَ الحقيقيَّ ببقرةٍ مذبوحة؟! وما هي علاقةُ البقرةِ بالموضوع؟! فقالوا له:

«لا شكَّ أَنَّك تهزأُ بنا وتَسْخَرُ مِنَّا يا «موسى»؟!».

فأجابهم مستعيذًا بالله أنْ يكونَ من القوم الجاهلين الَّذين يَسْخرون من الناس أو يتَّخِذُونَهُم هُزُوًا.

كَلِمَةٌ أَخِيرَةٌ

لَقَدْ أُرْسِلَ سيدُنا «مُوسى» عليه السلام بالآيات والمعجزات، لَيْسَ لِـ «فِرْعَوْنَ» وقومِهِ فَقَطْ؛ لِيَرْتَدِعُوا عن كُفْرِهِم وضَلَالِهِمْ، ويتَّبعُوا سبيل الرشاد.. بل أُرْسِلَ بالمعجزات

أيْضًا إلى «بني إسـرائيل» أنفسهم؛ ليُؤمِنوا بِنُبُوَّةِ «موسى»، وضرورة اتباعِهِ، والاهتداء بِهَدْيِهِ.

ولكنَّهـم ظلُّوا على ولائِهِم لما أَلِفُوهُ مـن نَوْعِيَّة الحياةِ، عقيدَةً وسلُوكًا، بيْنَ ظَهْرَانَيِ المجتمع المِصْريِّ، مِنْ وَثَنيَّة وفسـادٍ وانحـلال. وهكذا نراهُـم في أطْـوار تحركهم مع «مُوسـى» و «هارون» عَليهما السلام؛ لا يفتأون يَتَنَكَّرُونَ لِلْحَقِّ، ويقفون المواقفَ الدَّامِغَةَ لهُمْ بِالشِّرْك أبدًا!!

فمَوْقفهم حين أُمِروا بِذَبح البَقَرَة هو مِنْ تِلْك المواقف؛ إذْ رَاوَغُـوا فيـه مُرواغـةً كبيـرة، وتلـكَّأوا، واسْـتَمْهلُوا،

واسْتَفْسـروا، لَيْس حُبًّا بالوُصُـولِ إلى الحقيقة، أو تَقَصِّي الحـقِّ، بل مُسـايرةً للنُّفُـوسِ التي جُبِلَتْ عـلى الانْهزامية والاسْتخذاء، والضَّعف والتردُّد!

ولعلَّهُم ـ أيضًا ـ كانوا في موْقف التردُّد هذا ... يهزأون من «موسى» وطلبه، ومن آيات الله تعالى كذلك!!!

وأخيرًا أَذْعَنوا واستجابوا ... فقالوا له:

«إذَنْ اُطْلُبْ من ربِّك أَنْ يُبَيِّنَ لنا صفاتِ هذه البقرة».

فقال لَهُم عليه السلام:

«إن الله تعالى يقولُ: إنها بقرةٌ متوسِّطةُ العُمر، ليستْ فتيَّةً ولا مُسِنَّة».

وأَمَرَهُم أن ينفِّذوا أَمْرَ الله تعالى دون تأخير.

لكنَّ «بني إسرائيل» كانوا قوْمًا لا يُطيعُون أَوامِرَ الله سُبْحانَه، كما كانوا يَتَردَّدون تهرُّبًا في بَعْض الأحيان؛ فيُماطِلون ويُسَوِّفُون، ويُكثِرون من الأسئلةِ والاستفساراتِ؛ بقصْدِ تضييعِ الْوَقْتِ وإلهاءِ السائل.

فسألوا موسى عليه السلام:

«ما لَوْنُها؟».

فأجابَهُم:

«إنها بَقَرَةٌ صفراءُ فاقعٌ لَوْنُها ـ أى شديد الصُّفْرة ـ جميلة المنْظَرِ، تَسُرُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْها لحُسْنِها وبَهائِها».

فقال المنافقون لـ «مُوسى» عليه السلام:

«يا «موسى»؛ إن البقرَ تشابَهَ علينا؛ أي أَصْبَحْنا لا نَدْري الصِّفاتِ الحقيقيَّةَ المحدَّدةَ لِتِلْك البقرة؛ ولِهذا لا نستطيعُ أن نَذْبَحَ بَقَرَةً مُعَيَّنَةً، فما العمل؟!».

قالوا ذلك تَهَرُّبًا من المسئُوليَّة، وخَوْفًا من ظُهورِ القاتِلِ الحقيقيِّ، ومُخالَفَةً لأَمْرِ الله تعالى.

فقال لهم «موسى» عليه السلام:

«إن البقرةَ المطلوبةَ بَقَرَةٌ لم تُسَخَّرْ ولم تُذَلَّلْ في عَمَلٍ أو مَشَقَّة، وإنَّ جميعَ أعْضائِها سليمةٌ ليس فيها عِلَّةٌ أو عَيْبٌ أوْ مرض، وإنَّ جَسَدَها كُلَّه ذو لَوْنٍ واحد ليس فيه بُقْعةٌ تُخالِفُه».

عندئذٍ، وبعد كُلِّ تلك الإيضاحاتِ الَّتي بَيَّنها لَهُمْ «موسى» عليه السلام حَوْلَ البقرةِ المطلوبةِ، لم يجدْ «بنو إسرائيلَ» مَفَرًّا من الطاعة؛ فبحثوا عَنْها حتى وَجَدوها؛ ثُمَّ ذَبَحوها وهم يتمَنَّوْن لو لَمْ يفعلوا ذلك.

ثم جاء «موسى» عليه السلام وأَمْسكَ بلسانِ البقرةِ، والنَّاسُ مِنْ حَوْله ينظرون إِلَيْه بدَهْشة وعَجَب؛ ماذا يُريدُ أن يفْعَلَ

«موسى» بهذا اللِّسان؟

ثم ضَرَبَ به جِسْمَ القتيلِ المُمدَّد ضَرْبَةً واحدةً؛ فقام حيًّا بإذن الله تعالى، وأشار إلى قاتِلِه بيدِه، ثم نَطَقَ لسانُهُ وأخْبَرَ بما حَصَلَ له؛ فَأُلْقِيَ القبْضُ على القاتِلِ ونالَ جزاءَه. وعلى الرغم من إعجابِ ودهشة «بني إسرائيل» لِما حَصَلَ من «موسى»، فإنهم ظلُّوا على عِنادهم، وبَقِيَتْ قلوبُهم على قساوتِها، كأنَّها الحجارةُ أَوْ أَشَدُّ قسْوة مِنْها.

وَلَقَدْ لَقِيَ عليه السلام من «بني إسرائيل» ـ كما لَقِيَ غَيْرُه من أنبيائِهم ـ كُلَّ عَنَتٍ وعِنادٍ وصُدود، وما يزالون إلى الْيَوْمِ يَتَّصفون بالنِّفاقِ والْغَدْرِ والمَكْرِ، ويُخالِفون شريعةَ الله وأوامرَه الَّتي أَنْزَلَها في «التَّوْراة»؛ ولقد تجرَّأُوا على كتابِ الله فَغَيَّروا وأَخْفَوْا كُلَّ دَعْوةٍ فيه إلى الفضيلة والأخلاق!

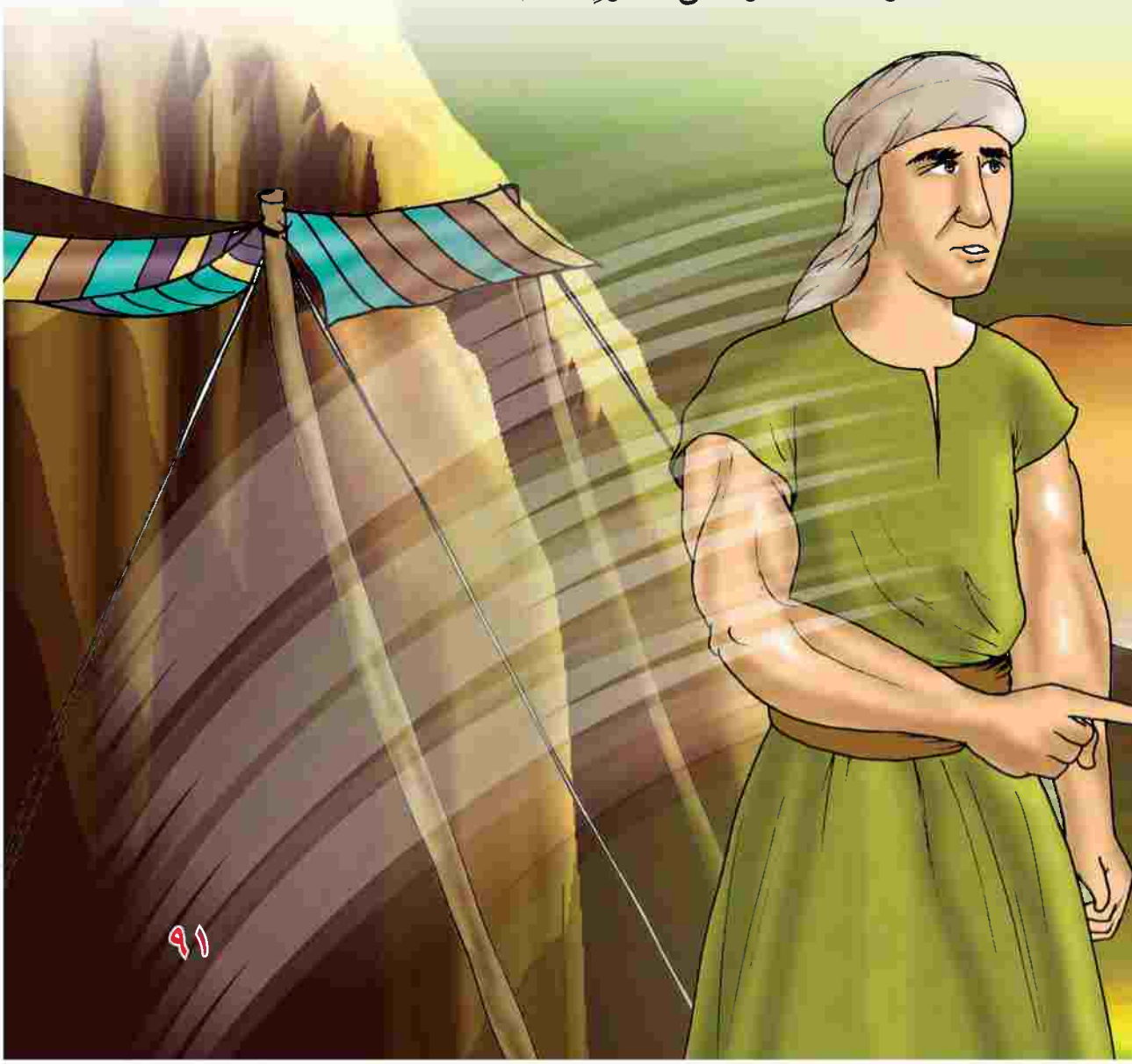

لقد قال الله في وصف حالهم:

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾!!

وأُحبُّ أنْ أُشيرَ إلى أنَّ سيِّدنا «موسى» عليه السلام حينَ ضَرَبَ الشابَّ القتيل بِبَعضِ البقرة، أي بِجُزءٍ منها، إنَّما ضَرَبَهُ باللِّسان! ولماذا اللِّسان بالذَّات؟ لأنَّهُ وَسيلةُ النُّطْقِ وأداتُهُ.

وعلى الرغْم من ظُهُور مُعْجزة القتيل الذي وَقَفَ وَنَطَقَ وأشار إلى قاتله، فإنَّ «بني إسرائيل» استَمَرُّوا في تيهِ العُقُول عن الهُدَى.

٧

عِجْلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قال الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة البقرة ـ الآيتان (٩٢ ، ٩٣).

(٢) سورة الأعراف الآيتان (١٤٨ ، ١٤٩).

كان «بنو إسرائيل» قد أَلِفوا[1] وثنيَّةَ المِصْريِّين وقلَّدوهم فيها؛ شأنَ كُلِّ مغلوب في تقليد الغالب؛ فلم يؤمنْ بـ «موسى» وإلهِه منهم إلا فئة قليلة، أما أكثرُهم فأقاموا على دين «فِرْعون» رهبةً مِنْه وخشية؛ ولم تكن الآياتُ التي أتى بها «موسى» لتمنعهم عن متابعةِ «فرعون». ورغم أَنَّهم جميعًا قد خرجوا مع «موسى» الذي خلَّصهم من بطشِ «فرعون» بهم وتعذيبهم وإذلالهم، فإِنَّهُم لم يُتابعوا «موسى» في رسالتِهِ!

لقد لَقُوا من «فرعون» وملإِه الذُّلَّ والمَهانة، ثم جاءهم «موسى» يُنقذهم ولَقِيَ في سبيل ذلك الأَمَرَّيْن، وتحمَّل السُّخْريةَ، والتهديدَ بالْقَتْل، والتكذيبَ، ورُمِيَ بأَنَّهُ ساحِرٌ مجنون؛ كما رَأَوْا بأعينهم الآياتِ البيِّناتِ على صِدْقه.

مع هذا كُلِّهِ غَلَبَتْ عليهم الوثنيَّةُ الْمُلْتَصِقَةُ بقلوبهم، وغَلَبَتْ عليهم بَلَادَةُ الطَّبْعِ، وما رُكِّزَ في طبيعتِهم هذه من سُخْفِ التفكير وضحالةِ[2] الرأْي.

---

(١) أَلِفُوا: تَعَوَّدُوا وأَحَبُّوا.

(٢) ضَحالَة: قِلَّة.

فلمَّا عبروا البحر إلى شبه جزيرة سيناء ـ والشمسُ فيها شديدة ـ ولم يكنْ هناك مساكنُ يأوُون إليها، ولا أشجارٌ يتفيؤون ظلالَها، اشتكَوْا إلى «موسى» ما يلْقونه من العناء؛ فتوجَّه عليه السلام إلى الله بالدُّعاء، فساق إليهم الغمامَ؛ ليُظَلِّلَهُم

ويَحْفَظَهم من وَهَجِ الشمس. وحينَ شعروا بأنَّ زادَهم من الطعام يكادُ ينتهي، وخافوا من الجوعِ والهلاك، أرْسَلَ الله تعالى لهُمُ المنَّ والسَّلْوى، والمنُّ مادةٌ تَتَزهَّرُ على أوراقِ الشَّجر يميل طعمُها إلى الحلاوة، ليِّنةٌ طيِّبة؛ والسَّلْوى هو طائر السُّمانَى، كان يغطِّي الأرضَ لكثرته؛ فيأخذُ كُلُّ واحدٍ منهم حاجته.

كما أَنَّهم خافوا الهلاكَ من العطشِ لِقِلَّةِ الماء؛ فشكَوْا إلى «موسى» أيضًا مُتَذَمِّرين، فَأَمَرَهُ الله تعالى أن يضربَ صخرًا بعصاه، فلمَّا ضَرَبَهُ تفجَّرتْ منه اثنتا عشرة عينًا تتدفَّق بالماءِ الغزيرِ النمير (عيون موسى)؛ وذلك بعدد فروع عشائرهم وأَسْباطهم؛ فشربوا حتى ارتوَوْا، وحملوا مَعَهُم ما استطاعُوا حَمْلَهُ.

كان «موسى» عليه السلام قد وَعَدَ قومَهُ وهم بمصر: إنْ أَهْلَكَ الله «فِرْعَوْنَ» ونجَّاهم؛ أن يأْتيَهم بكتاب يبيِّنُ لهم فيه ما يأتُون من الحلال، وما يَدَعُون من الحرام.

فلمَّا أَهْلَكَ اللهُ «فِرْعَوْنَ»، سأل «موسى» ربَّهُ أن يؤيِّدَهُ بهذا الكتاب؛ فأوصاه الله تعالى أن يَصْعدَ إلى الجبل (جبل الطور) ويمكث فيه ثلاثين ليلة؛ يصوم نهارَها ويقوم ليلَها، حتى إذا أتمَّها بِعَشْرٍ فكانت أربعين، أعطاه الله ألواحًا وكتبَ له فيها تلك الوصايا لـ «بني إسرائيل».

فأطاع «موسى» أمْرَ ربه؛ وقبلَ أن يذهبَ لميقات ربِّه طلب إلى أخيه «هارون» أن يكونَ خليفَتَهُ على «بني

إسرائيل»؛ ينظُر في مصالحِهم وشُؤُونِهم.

وبعد أن أَتَمَّ «موسى» صيامَهُ وقيامَهُ، كَلَّم ربَّهُ قائلًا:

﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾[1].

فقال له ربُّه:

﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾.

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾، وكان هذا الطَّلَبُ من «موسى» عليه السلام شيئًا غيرَ مُمْكِنِ التحقيق؛ لأنه لا يستطيعُهُ ولا يقْوى عليه.

وبعد أن أفاقَ «موسى» من الغَشْيَةِ التي أصابَتْهُ لِهَوْلِ المنظر، قال مُناجِيًا ربَّه:

﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

ثم أعطى الله تعالى «موسى» ما وَعَدَهُ من الألواح وفيها المواعظ والأحكام، وأَمَرَه أن يُبلِّغها إلى «بني إسرائيل» ويأْخُذَهم بها.

---

(١) أي مَكِّنِّي من رؤيتك.

ثم عادَ إلى قومه فَوَجَدَهُم في حالٍ سيِّئة.

لقد كان فيهم رجُلٌ يُقال له «السَّامِريُّ» اسْتَغَلَّ سذاجتَهُم وضعفَ عقولِهم وقُلُوبِهم؛ وجاءَهم بتمثالٍ لعِجْلٍ من ذهبٍ له خُوارٌ[1]؛ لأنَّه مفتوحُ الْفَم والدُّبُر، تَمُرُّ فيه الريحُ فيُحْدِثُ صَوْتًا شبيهًا بِخوارِ الْبَقَر.

وقال لهم ـ أي السَّامِريُّ ـ :

«هذا إلهُكم وإله «موسى» نَسِيَهُ هنا؛ وذَهَبَ لِمُلاقاتِهِ في غيبته الطويلة!!».

ورأى «هارون» ضلالَةَ الْقَوْمِ وانقيادَهُم لـ«السَّامِريِّ» بعد أن صَدَّقوه في دعواه؛ فنهاهُم عن عبادةِ العجل. وكانتْ هذه العقيدةُ الوثنيةُ مألوفةً في «مِصْر»؛ حيث كان المصريون يعبدون عجل «أبيس».

---

(١) الخوار: صوت البقر.

وأفهم «هارونُ» «بني إسرائيلَ» أنَّهم إنَّما فُتِنُوا بدَعْوَى «السَّامِريِّ»، فلم يُفْلِحْ في ردِّهم؛ واستمرُّوا في ضلالتِهم، وقالوا:

﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

رأى «موسى» قومَهُ على ما هُم عَلَيْه، فغَضِبَ وحَزِنَ؛ وظنَّ في أخيه «هارون» السوء، فلمَّا لَقِيَهُ أَمْسَكَ به من لحيتِهِ ورأسِهِ، وشَدَّه وجَذَبَهُ ولامَهُ؛ فاعتذر «هارون» لأخيه، وأوضح له مُجْرَياتِ الأمور؛ وبأنه بذل كُلَّ جُهْدِه فلم يُفْلِحْ، ولو أَنَّه قام بقتال من ارتَدَّ من النَّاس، لكان ذلك سببًا في فتنةٍ وفُرْقةٍ واقْتتال؛ لهذا رأى أن ينتظرَ عودةَ أخيه.

ثم ذهب «موسى» إلى «السَّامريِّ» وسألَهُ عن شَأْنِهِ والأسبابِ التي جعلتْهُ يقومُ بهذا العملِ المُنْكَر، فقال:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ (١)
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا (٢) وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِى نَفْسِى (٣)﴾.

---

(١) بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ: أي أنني بَلَغْتُ مرتبةً من الْعِلْم لم يبلغها واحدٌ من هؤلاء.

(٢) فنبذْتُها: أي أَلْقَيْتُ جانبًا بعضَ تعاليم الرسول ـ الذي هو موسى عليه السلام ـ وطرحتُها.

(٣) سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي: أي هذا ما أَمَرني به شيطان نفسي ووسْوَس به.

فقال له «موسى» :

﴿ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ ﴾.

وكانت هذه الدَّعْوةُ من «موسى» عليه السلام على «السَّامريِّ» أَشَدَّ ما ابتُلِيَ من عِقابٍ في الحياة الدُّنيا.

لقد كان عقابُهُ عقابًا بَدَنيًّا؛ إذ يتألَّمُ أعظمَ الأَلم من مَسِّ أيِّ إنسانٍ له، فكان بعد ذلك إذا ما لَقِيَ إنسانًا وخَشِيَ أن يَمَسَّهُ يقولُ له: لا مِساسَ؛ أيْ ابْتعدْ عني ولا تمسَّني فَأَتأَلَّم؛ أما عذابُ الآخرةِ فهو أشدُّ وأقسى.

وهكذا... فقد كان «موسى» عليه السلام مُنْذُ طفولته إلى شبابِه، إلى رجولتِه، إلى كُهولتِه، حاملًا لهموم «بني إسرائيل»،

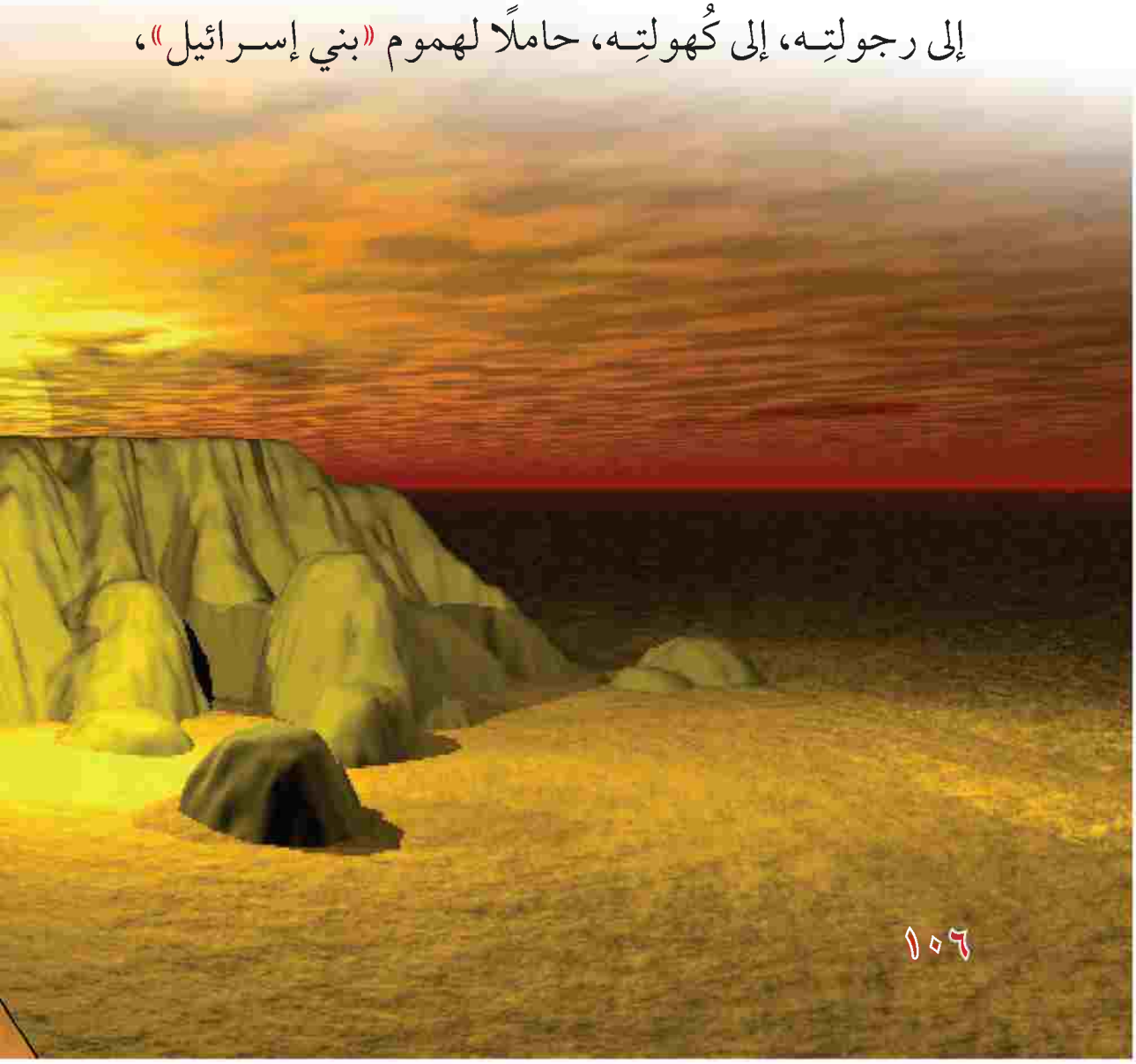

يَـدْأَبُ وَيَسْـعى، ويَنْصَـبُ ويَشـقى في سـبيل خلاصهـم وهدايتهـم، وهـم مع كُلِّ هـذه التضحياتِ وهـذا الجهادِ ظلُّوا على ما أُشْـرِب في قلوبهم من الهوان، وعلى ما رُكِّبَ في عقولهم من الغَباء.

وَظَـلَّ «بنـو إسـرائيلَ» في سَـيْرِهم حتـى اقتربـوا مـن «فلسـطين»؛ الأرض التـي وَعَدَهُـمُ الله تعـالى أن تكـونَ

سكنًا ووطنًا لهم، فلمَّا أصبحوا قَابَ قَوْسَيْن أو أدنى، اعتراهُمُ الخوفُ، ودخل في قلوبهم اليأْسُ، وتمثَّل لهم شَبَحُ الموتِ في كُلِّ خُطوةٍ يخطونها! فتوقَّفوا عن المسيرِ، وقالوا لـ «موسى»:

﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾.

كما قالوا له:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾.

فشكا «موسى» أَمْرَهُ إلى الله تعالى قائلًا:

﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ (١) بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

فاستجاب الله دُعاءَ نبيِّه عليه السلام، وأَخْبَرَهُ أن هذا الوطنَ الذي وعَدَهم به قد حَرَّمه عَلَيْهم؛ وأَنَّهُم سيتيهون في الأَرْض أربعينَ سَنَة.

وكان حكم الله عادلًا؛ وهو أحكمُ الحاكمين.

---

(١) فافْرُقْ: فاحْكُمْ.

٨

عُزَيْرٌ وَحِمَارُهُ

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾[1].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة البقرة ـ الآية (٢٥٩).

(٢) سورة التوبة الآية (٣٠).

كان «عُزَيْرٌ» شابًّا من «بني إسرائيل»، نَشَأَ على التَّقوى والعبادة، حَسَنَ الصِّلة بالله تعالى، وتفقَّه وتعلَّم حتى برَّز[1] بَيْن الناس، وأضْحى من العلماءِ الذين يُشار إِلَيْهم بالبنان[2]، ويُعْتَمَدُ عَلَيْهم في بيانِ الأَحكام.

ولقد كان والدُهُ من كبار الأَحْبار وخُدَّام الشَّريعة وكُهَّانِ الهَيْكل... وَمِنْهُ تلقَّى «عُزَيْرٌ» أُولى معارِفِه وعلومِهِ، وعلى نَهْجِهِ سار في حياتِهِ.

وفي ذاتِ يَوْمٍ ـ وكان والدُهُ قد ماتَ وَوَرِث هُوَ عَنْهُ مقامه ومكانته في الْقَوْمِ ـ خَرَج «عُزَيْرٌ» من الْبَلَدِ التي يَسْكُنُها إلى ضاحيةٍ فيها حَيْثُ تكْثُرُ المزارعُ وبساتينُ الفاكهة وعُيُونُ المياه الجارية، وكان لـ«عُزَيْرٍ» هُناك بُسْتان من كروم الْعِنَب، وبعض أشجار الفاكهة ...

ولقد خَرَج بقصْد التَّنَزُّه والتَّرْويح عن النَّفْس، والاطِّلاع على الشجرِ والثمر، والاعتناء بما هُو في حاجةٍ إلى رعاية واهتمام منها، كيْ تُؤْتِيَ أُكُلَها شهيًّا طيِّبًا.

---

(١) بَرَّزَ بينَ الناس : فاقَهُمْ.

(٢) البنان : الإصبع.

وصَلَ إلى الْبُسْتان راكبًا على حمارِهِ، وإلى جانبه خُرْجٌ فيه آلات الْعَمَلِ من مِعْولٍ ومِسْحاةٍ وغير ذلك، وفيه أيضًا بعْضُ الْخُبْزِ اليابس، وقَصْعةٌ[1] يَستخْدمها في أكلِهِ.

تَرَجَّل عن الحمار، وربطه جانبًا، وحَلَّ رباط الْخُرْج، واستَخْرج المعول والْمِسْحاة، وبَدَأ الْعَمَل..

لم يَتْرك شجَرةً إلَّا مَرَّ عَلَيْها، فَقَلَّم منها الأَغْصان اليابسة، وخَفَّف عنها بَعْضَ الأوراق، ثمَّ جَرَّ الماء إلى الأَرض من خلال ساقيةٍ كانَتْ تمُرُّ بإزاء البُسْتان، فَسَقى المزروعات، حتى ارتَوَت وانْتَشَتْ.

لم يَهْدأ، ولم يكلَّ، بل كان يتنقَّل هنا وهناك، حتى أَمْضى سحابَةَ ما قَبْل الظهيرة وقد تبلَّلَتْ ثيابُهُ بالْعَرَق، فجلس في ظِلِّ شَجَرةٍ ليَسْتريح من عناء العمل، وتَعَبِ السَّعْي والْكَدِّ.

وكان قد أَحْضَرَ معه إلى مجلسه تَحْتَ الشجرَةِ عنقودًا من الْعِنَب، اعْتَصَرَهُ في الْقَصعةِ، ثُمَّ فَتَّ فَوْقَهُ بعض

---

(١) الْقَصْعة : الصَّحن الكبير.

الْخُبْز، وتَرَكَ ذلك جانبًا حتَّى يَبْتَلَّ ويتفاعل تمهيدًا لتناول الْغَدَاء.

وتَمَدَّدَ في ظِلِّ الشجرة مُسْنِدًا ظهره إلى جِذْعِها... وكاد يَغْفُو!!

فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ

وبَيْنما «عُزَيْرٌ» في اسْتِرخائِهِ... نَظَرَ إلى ناحيةٍ غَيْر قَصِيَّةٍ عَنْهُ... إلى مَقْبَرةٍ... فرأى القبُور مُتداعيةً، قد تهدَّمَتْ بعْضُ جوانبها، وتناثَرتْ منها الحجارة، وبَدَتْ منها بعض عِظام الموْتى!

فَشَدَّهُ ذلك الْمَنْظَر، وأَيْقَظَ فيه حِسَّ التساؤُل والتفكُّر والتَّدَبُّر، وَكَأَنَّ طَيْفَ الكَرَى[1] والنُّعاس قد ولَّى عَنْه، وفَقَد السَّيْطرة عَلَيْه... فقال مُتَسائِلًا:

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ .

---

(١) الكَرَى : النُّعاس.

لـم يَقُلْ ذلك إِنْكارًا مِنْهُ لِقُـدْرَةِ الله على بَعْثها، معاذ الله؛ فقد كان «عُزَيرٌ» مُؤْمنًا غاية الإِيمان، راسخَ العقيدة، عميقَ التديُّن، واثقًا كُلَّ الثِّقة من الْبَعْثِ.

فقط... كانَتْ خاطرة مـرَّتْ بِهِ، داعَبَتْ خياله، وعبثَتْ بِفِكْرِهِ، إلى حين، وهي ـ ولا شَـكَّ ـ مِنْ قبيل قوْل سـيِّدنا «إبراهيم» عليه السلام:

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾[1].

وما كاد «عُزَيْرٌ» ينطِقُ بهذا التساؤل، حتى كان الرَّدُّ...

ولقد كان هذا الرَّدُّ عمليًّا... فقد أَلْقى الله تعالى عليه سِنَةً من النَّـوْم، فَأَغفى... وكانت الإِغفـاءَةُ طويلةً... والرَّقْدَةُ مديدةً... اسْتَمَرَّتْ مائة عام!!

والأعـوام المائة ـ عادَةً وعُرْفًـا ـ تتولى فيها ثلاثة أجيالٍ من البَشَريَّة، من الذُّرِّيَّة وذُرِّيَّةِ الذُّرِّية.

واستفاق «عُزَيْرٌ» مِنْ نَوْمِهِ الطويل، وهُوَ يَظُنُّهُ قصيرًا!!

---

(١) سورة البقرة ـ آية (٢٦٠).

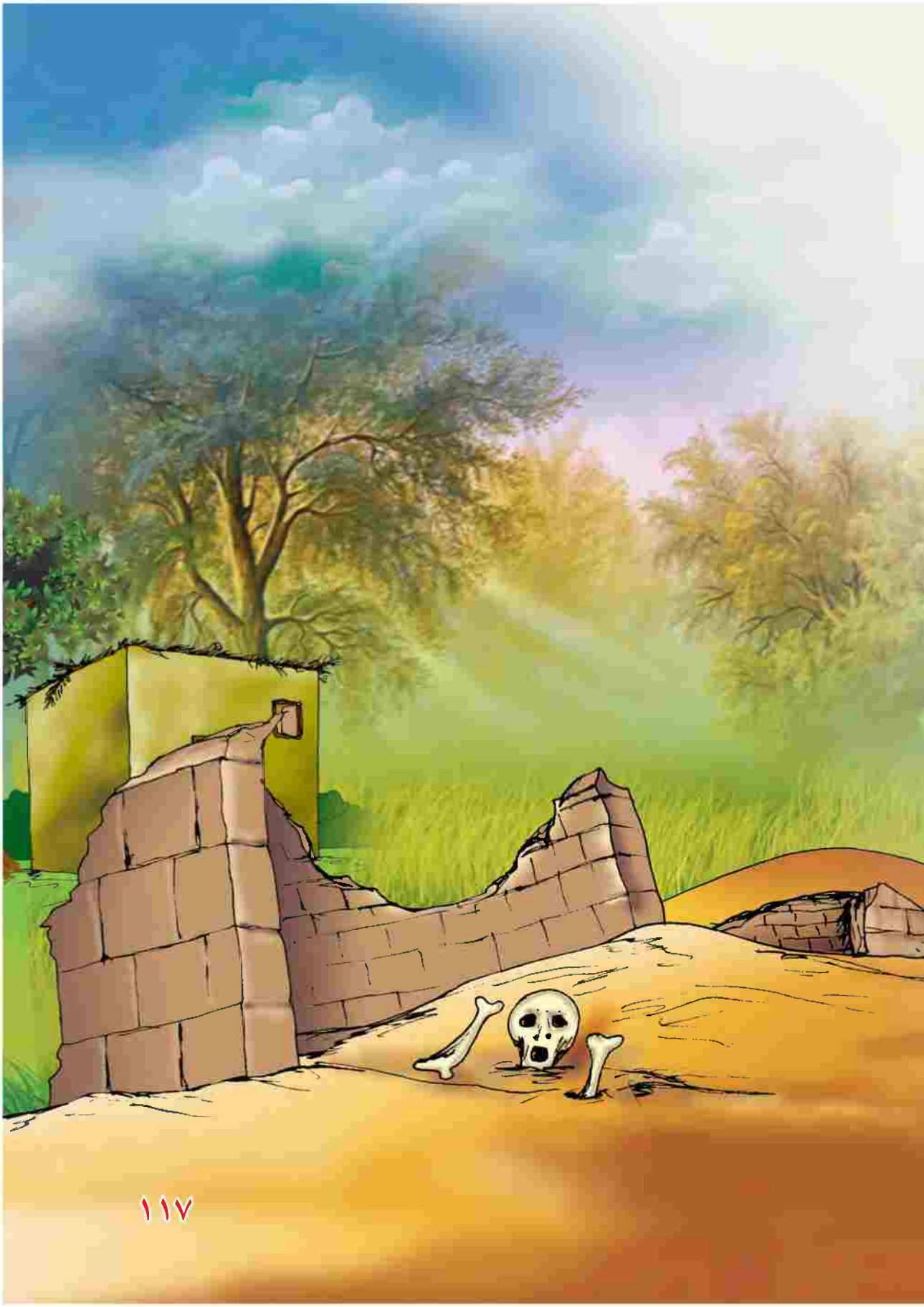

وجاءَهُ السؤال:

﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾.

فقال على الفوْر، وهُوَ يرى أُفُولَ[1] الشَّمْس نحو الأُفُق وانْحِدارها:

﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا ﴾.

ثُمَّ اسْتَدْرك؛ إذْ لا يزالُ شُعاع الشَّمس يُلْقي بأنواره الصَّفْراء الذهبية على قِمَمِ التلال والْهِضاب؛ فقال:

﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾.

وعندئذٍ جاءَه الجوابُ الحقيقة:

﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾.

مائة سَنَةٍ كاملة!!! وأَنْتَ في نوْم عميقٍ، كَأَنَّهُ الموْت... وأَنْتَ لا تَدْري... فانْظُر ـ يا «عُزَيْرُ» ـ لِكَيْ تُصَدِّقَ، إلى أَمْرين اثنين، شاهِدَيْن على هذه الحقيقة:

---

(١) أُفول: غياب.

انْظُـرْ أَوَّلًا إلى طعامـك الـذي تركْتَهُ جانبًـا.. إلى عَصِير العِنَبِ وفُتاتِ الْخُبْز، انْظُرْ إلَيْهِ وتَأَمَّلْهُ، فهُوَ لم يَفْسَـدْ، لم يَأْسَـنْ ولم يَحْمض!! إنَّهُ على حالِهِ تمامًـا، وكَأَنه قد هُيِّئَ مُنْذُ لحظاتٍ فقط!!

هذا أَمْرٌ... وهُوَ شاهد...

والأمْرُ الآخر... انْظُرْ إلى حِمَارِك...

ونَظَرَ «عُزَيْرٌ» إلى ناحِيَةِ الْحمار، الذي ربطَهُ بِرَسَنِهِ[1] إلى جِذْعِ شجَرةٍ... فإذا هُوَ كَوْمةٌ من عِظامٍ رميمٍ[2].. قد تآكَلَتْ...

لا بَرْدَعـة، ولا مِقْـوَد، ولا شـيْءٍ يَدُلُّ عـلى الْحِمارِ إلَّا العظام البالية!

وراح «عُزَيْـرٌ» يَتَأَمَّلُ الْقَصْعَةَ وما فيها من طعام، ويَفْتَحُ عَيْنَيْه مُبحْلِقًا ناحية الحمار، فلا يرى إلَّا الْعِظام!!! وينْقُلُ بَصَرَهُ بَيْن الناحيتين في دَهشةٍ وتأمُّل وتفكُّر! وَأَدْرَكَ بَعْضَ الحقيقة... لا كُلَّها!

---

(١) بِرَسَنِهِ: بِحَبْلِه.

(٢) رميم: فُتات.

وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

إنَّ الـرَّدَّ العمـليَّ في تسـاؤلك ـ يـا «عُزَيْـرُ» ـ عـلى بَعْثِ أَهْـلِ الْقُبُور مـن الأمْوات الذيـن مَضـت عَليْهم أحقاب السنين الطِّوال ... يُرادُ مِنْهُ أن تكون أَنْت بذاتِكَ.. بِبَدَنِكَ ورُوحِكَ.. وجِسْمِكَ ونَفْسـك .. آيةً وعلامةً لِكُلِّ الذين قد يخطُرُ في بالِهِم وفي روْعهم أن يَسْألوا نَفْس سُؤَالِكَ.

ولتكـون ـ أيضًا ـ علامةً وآيةً لِبعْـضِ الناس من قَوْمِكَ وعشِـيرتك الَّذيـن لعبت برؤوسـهم وسـاوس الشـيطان فصَدَّقُوهُ، وقالُوا:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

النـاسُ المنحرفُـون بعقيدتهم عن الإيمان بـالله والْيَوْم الآخر، والْبَعْثِ والحساب والثواب والْعِقاب.

ولِتَزْداد ـ يا «عُزَيْرُ» ـ إِيمانًا بالله، وثِقَةً بِهِ، واعْتمادًا عليْه، ودَعْوةً للناس إلى الحق... والحقيقة.

وانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ

ثُمَّ أُمِرَ «عُزَيْرٌ» أَنْ يَنْظُرَ إلى عظام الحمار.. العظام البالية كالرَّميم؛ ليرى بِأُمِّ الْعَيْن عمليَّة الْبَعْث والإِحياء!

﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾.

ونَظَرَ «عُزَيْرٌ» ... فإذا الْعِظامُ تستعيدُ خلاياها الحيَّة، وإِذا بها تَتَجمَّعُ مِنْ جديد ثمَّ تتشكَّلُ في هَيْكلها الأوَّل... من الرَّأْس إلى الْجُمْجُمَة إلى العمود الفقرى إلى الأَضلاع إلى الْقوائم إلى الذَّيْل، إلى كُلِّ الأجزاء، فإذا الهيْكل العظمي قائم مُنْتَصِب!

وإذا اللَّحْم يأْخُذُ طريقة في كُلِّ جِهَةٍ من بَدَنِ الحمار إلى مكانها السابق، تُغطِّي الفراغات وتكْسُوها... وتَظهرُ العيْنانِ!! والْفَم والأُذنان!! وكذلك أجْهِزَة التَّنفُّس، وأَجْهِزَةُ الهضم، وكُلُّ جُزْئيَّةٍ صغيرة في هذا الكيان!!

وَنَهَقَ الْحِمارُ، وقد دَبَّتْ فِيه نَسْمَةُ الحياةِ بقُدْرةِ وأمْر الله تعالى !!!

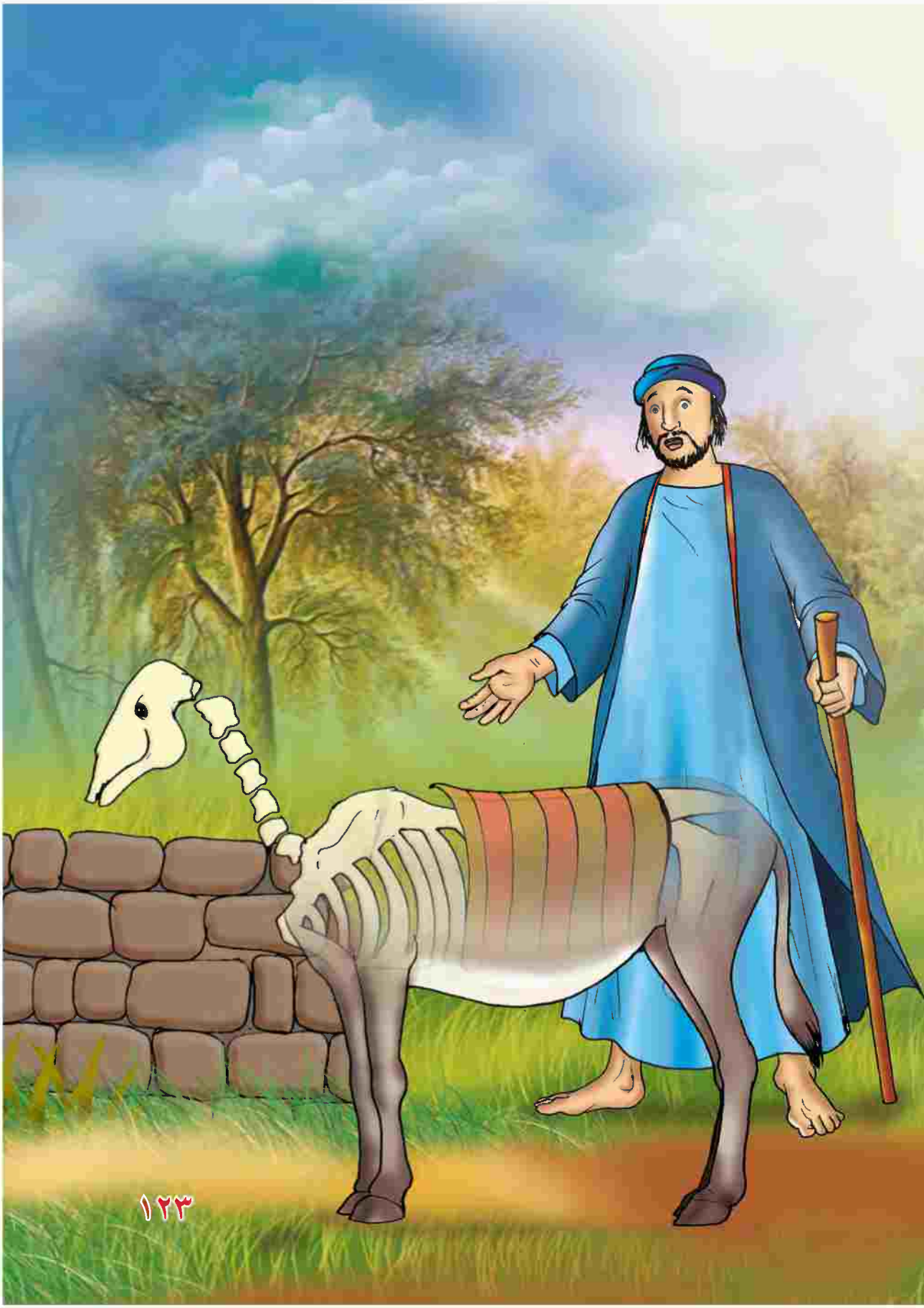

وكان «عُزَيْرٌ» في كُلِّ ما يرى مَشْدُودَ الْفِكْر، مُتَنَبِّهَ الحواسِّ، يكادُ يَذْهَبُ عَقْلُهُ، لكنه كان يتماسكُ بدافعٍ من إيمانه باللهِ تعالى من جهةٍ، وبدافعٍ من حُبِّ الاستطلاع من جهةٍ أُخْرى.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، وانْتَهى الْمَشْهَدُ العظيم، وأُسْدِل السِّتار.

خَرَّ «عُزَيْرٌ» ساجدًا للهِ تعالى، وهُوَ يُردِّد:

﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

بُنَيَّ العزيز:

لقد سَبَقَ قُرآنُك الكريم، كتابُ الله العظيم، كُلَّ الأَبْحاث العلميَّة المعاصِرة بالاعتماد على الحيوان، كوسيلةٍ من وسائل التجارب...

وليس هذا فقط... بل إن القُرآن الكريم قد جَعَلَ من الحيوان مادَّة كتجربةٍ تَتَخطَّى الحقائق العلمية التي يتعاطاها الناس في حياتهم إلى ما هُو أبعد من ذلك بكثير... إلى الحقائق الكونية الكُبْرى!!! ومنها الْبَعْث.

٩

الْكَعْبَةُ والْفِيلُ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الفيل.

أَبْرَهَةُ الْحَبَشِيُّ

كانت «الْيَمَنُ» تَخْضَعُ لِحُكْم الأَحْباش، وذلك قَبْل ولادة سيِّدنا «محمد» ﷺ؛ فقد سَيْطروا عليها، واستبدُّوا بها، وَأدالُوا دَوْلة «الحِمْيريِّين» من أَهْلها، الذين كانوا ينتسبُون إلى «قحْطان» جدِّهم الأكبر، رَأس الْعَرَب العاربة.

أما «أَبْرَهةُ» فقد كان واليًا على تلْك البلاد من قِبَل مَلِكِ الحبشة، ولقد عُرِف عَنْهُ الغلظةُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الْخُلُق.

وكان أَسْوَدَ شديد السَّواد، ذَا شَعْرٍ مُجَعَّد، ضَخْم الْجِسْم، عظيم الرأْس، قد شُقَّتْ إحدى شفَتَيْه الغليظتيْن؛ ولذا عُرِف بـ «الأَشْرَم».

وكان «أَبْرَهَةُ» على دين رؤسائه من ملوكِ «الحبشة»: نَصْرانيًّا مُتَعَصِّبًا، ومُبالغًا في كراهية كُلِّ مُعْتَقَدٍ غير النَّصْرانيَّة.

بَيْنَ التَّرْغيبِ والتَّرْهِيبِ

أَمَّا العربُ من أَهْل اليمن ـ ورغم قسوة التسلُّط وقَهْر النُّفُوس ـ فقد كانوا توَّاقين أَبَدًا إلى أصالة انتسابهم

التاريخي، وولائهم للبيْت العتيق (الكعبة) في «مكة» ـ أمِّ القُرى ـ .

فَمَع بدايةِ كُلِّ مَوْسِمٍ... كانوا يشدُّون الرِّحالَ إلى (الكعبة) زائرين مُعَظِّمين، يَتَحمَّلُون مشاقَّ السَّفر الطويل بصَبْرٍ وجَلَدٍ، ثم ترتاح أبدانُهُم وتطمئن نُفُوسهم حين يبْلُغُونَ غايَتَهُم وَيَنتَهُونَ إلى مقْصدِهم.

كان أبرهَةُ يتساءَل ويَسْأل:

«أيُّ بَيْتٍ هذا الذي تقصده العرب؟».

فيُجاب: بأَنَّهُ بناءٌ بسيط متواضع، لا فَنَّ فيه ولا زَخْرفة، وقد رَفَعَ قواعِدَه «إبراهيمُ» و «إسماعيلُ» عليهما السلام فيما مضى من القرون.

قال «أبْرَهَةُ» في نَفْسِه: «لأَصْرِفَنَّ عَرَبَ اليمن عن هذا البيْت، ولا يكونُ ولاؤهم المطلقُ إِلَّا لي!».

ثم شَرَع في إقامة كنيسةٍ عظيمة، جَنَّد لها كُلَّ الطَّاقات؛ فَحَشَد البنَّائين، وصاحِبَ كُلِّ فَنٍّ راقٍ وجميل، وصَرَف الأمْوال الطائلة، وأشْرَف بِنَفْسِهِ على إنجازها، حتى باتَتْ تُحْفَةً رائِعَةً! وسمَّاها: «القُلَّيْس».

لكن هذا الأسْلوب في الترغيب والإغراء لم يُؤْتِ ثماره؛ فَلَمْ يتأثَّر بِهِ أَهْل اليمن، فَظَلُّوا عاكفين على مُعْتَقَدِهم ووثنيتهم، وواصلوا طريقهم في المثابرة على إتْيان «مكة» مع كلِّ مَوْسم، مُعظِّمين البيْت العتيق، حاملين أنْواع الهدايا والطُّرف.

اغتاظ «أَبْرَهَةُ» أشَدَّ الغيْظ؛ لأَنَّه لم يُفْلِحْ في مسْعاهُ، وأَقْسَمَ لَيَهْدِمَنَّ بَيْتَ العرب، ويجْعَله قاعًا صَفْصَفًا...

وأخَذَ يُعِدُّ العُدَّة لذلك، وأخْبَرَ سَيِّدَهُ مَلِكَ «الحبشة» بعزْمِهِ ونِيَّتِهِ، مُزَيِّنًا له المكاسِبَ والنتائِجَ التي سوْف يجنيها سُلْطانُ الأحباش من وراء هذا التدبير!!!

وحَشَدَ آلافًا من الجُنْدِ بكامِلِ عُدَّتهم من أدواتٍ وسلاح، ثمَّ خَرَج بهم من عاصمة مُلْكِهِ تَحُفُّ بِهِ الرَّايات، وتَلْمَعُ بين يدَيه الرِّماحُ والسُّيوفُ الْمُشْرَعَةُ.

الْفِيلُ

وجعل «أَبْرهَةُ» في مُقَدِّمةِ جَيْشه فيلًا ضَخْمًا ما رَأَتْ

عُيُونُ البَشَـرِ مثيـلًا لهُ في أرْض الْعَـرَب، ولا في غيْرها ... قـد جُعِلَ فوق ظَهْرِهِ هَوْدَجٌ كبيرٌ مُصَفَّح، يَحْمي قائِدَه من خَطَرِ أَسِـنَّةِ الْحِرابِ والسِّـهام، كما جُلِّل رأسُـهُ بالجُلُودِ الغليظة لنَفْسِ الغرض.

وكان الهَـدَفُ مـن سَـوْق هـذا الفيل في مقدِّمـة الجيش هُوَ اسـتخدامُهُ في هَدْم الكعْبَـةِ؛ حَيْثُ يُثار ويُهـاجُ بالوَخْزِ والضَّـرْب أوْ غير ذلك، كي ينطحَها برأسـه الضَّخْم نطحاتٍ شديدة، فتتهاوى حجارتُها...

وَلَكَ ـ يا بُنَيَّ العزيز ـ أَنْ تَسْأل:

ولمـاذا يُسْـتَخْدمُ الفيلُ؟ أليْـس بإِمْكان «أَبْرَهَـةَ» وجُنْدِهِ أن يَنْقُضُـوا بناء (الكعبة) بأيديهم ومعاوِلِهم؟

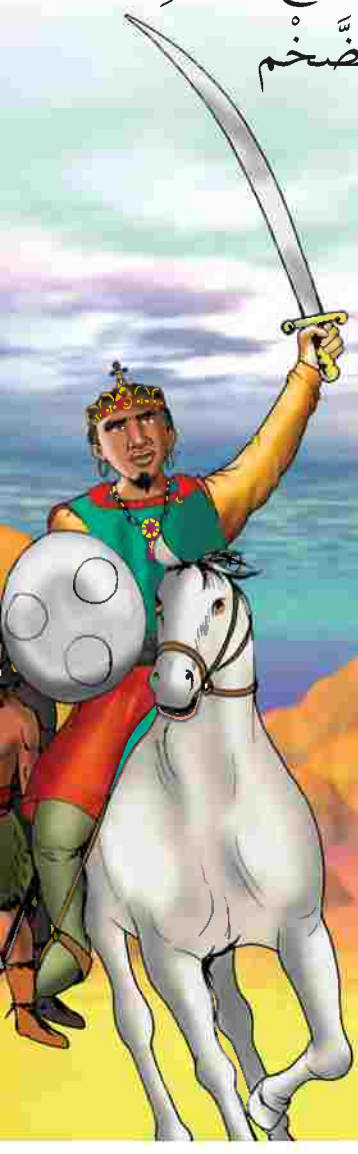

وهذا صحيح...

لكنَّ «أَبْرَهَةَ» الْمُتَغطْرِسَ الْمُسْتَبِدَّ كان يَهْدِفُ إلى إذلال الْعَـرَب بِهَدْم رمْـز مُعْتَقَدِهـم ومهْوى قُلُوبهـم وأَفْئِدَتِهم بأُسْلوب فيه التحقير والازدراء، وهُوَ استِخْدام الحيوان!!

لكنَّ سَهْمه طاش، وَفأْله خاب.

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

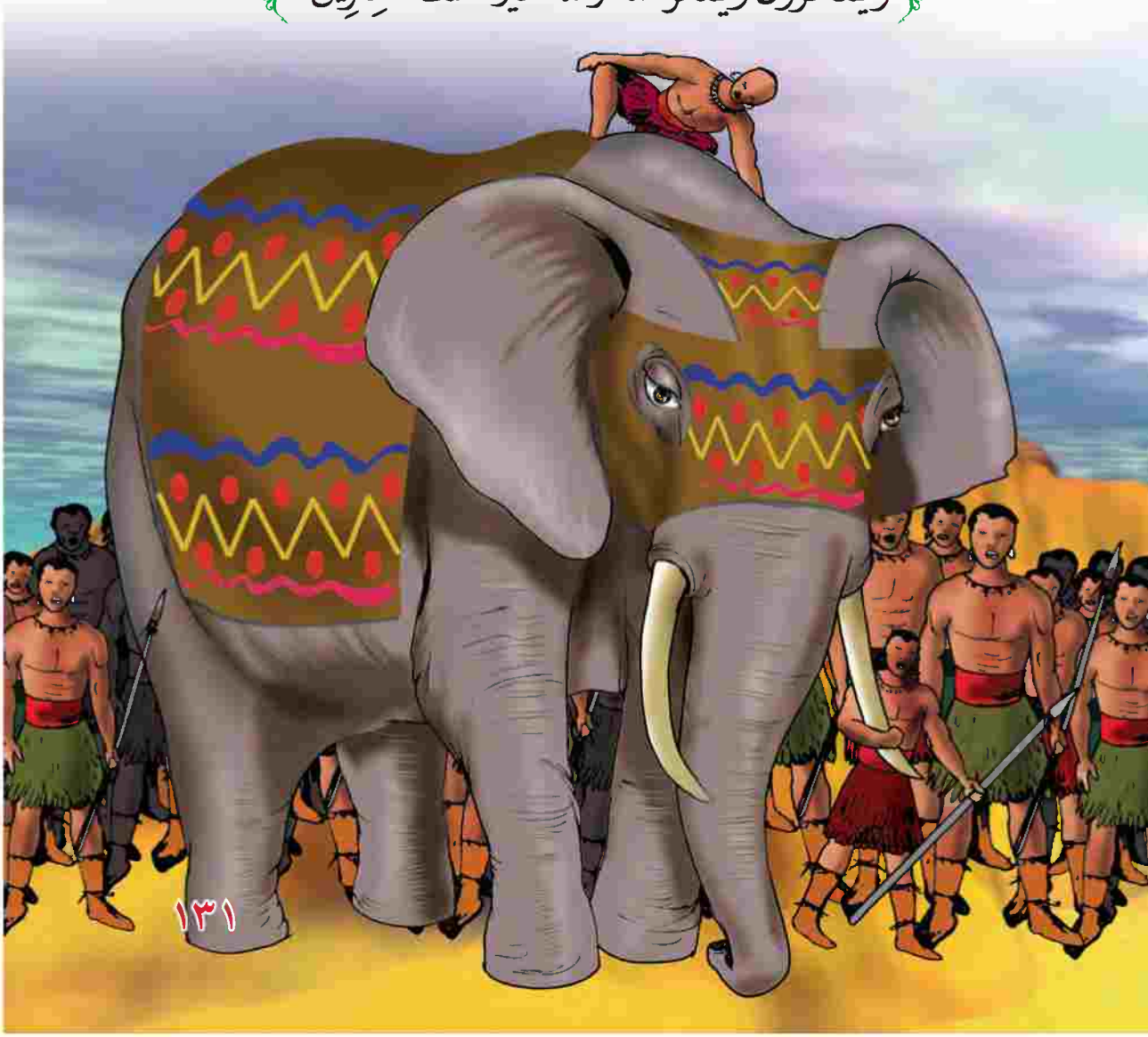

في الطَّرِيقِ

مضى «أَبْرَهَةُ» بجيشه الكثيف وجُنده المدجَّج بالسِّلاح، يقطعُون المفـازات، ويهبطـون الأوْدِيَةَ، ويَعْلُـون الجِبالَ والكُثْبانَ، وتُثير حوافِرُ خيولهم الغُبارُ الذي يسدُّ الآفاق، كما تُرَجُّ الأَرْضُ من السَّنابك، وتَهْتَزُّ كأنَّها أصابها زلزال!!

و«أَبْرهَـةُ» يَعْتـلي صَهْوَةَ جوادِهِ، غاطِسًـا في حديد دُرُوعِهِ، وتَلْمَعُ سِحْنَتُهُ السَّوْداءُ تحتَ أشعَّة الشمس... تُحيطُ بِهِ كواكِبُ الفُرْسَان الأشِدَّاء، وتخفقُ فوق رؤوسهم الأَعْلامُ والرَّاياتُ بألْوانها الزاهية، ورسومها وزخارفها المختلفة. ولقد ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ؛ لِكَثْرَتهم وانتشارهم.

مُغامَرَةٌ فاشِلَةٌ

عَرَفَتْ بَعْضُ القبائل من عَرَب «تِهامَة» و «عسـيرٍ» بنِيَّةِ «أَبْرهة»، وخروجه من «اليمن» وقصدِهِ «مكة»، فجاشَتْ حَمِيَّتُها، واضْطَرَمَ حماسُها، وتنادى زُعماؤها للْوُقُوفِ في

وَجْهِ الطُّوفانِ الزاحف؛ دفاعًا عن البيْت العتيق، وصَوْنًا لِـ (الكعبةِ) عن التدمير.

ووقعت بَيْنَهُم وبَيْن جَيْشِ «أَبْرهة» بَعْضُ المعارك والمُناوشات، إلَّا أنها باءَت بالفَشَل، وعادت على أصحابها بالْخُسْران والهزيمة والأَسْر، فظلَّ «أبرهة» يَمْضي في طريقه مع جَيْشِهِ كالسَّيْلِ يَهْدمُ السُّدودَ، ويتخَطَّى الحواجِزَ، ويقوِّضُ الموانعَ، ويُخَلِّفُ من ورائه الخَرابَ والدَّمارَ. حتى كان قريبًا من «مكة».

في ضَواحِي «مَكَّةَ»

تَوَقَّفَ الْجَيْشُ عن المسير.

فَأَقام «أَبْرَهَةُ» مُعَسْكَرَه في الضَّواحي؛ للاستراحة واستعادة النَّشاط، ثُمَّ تنفيذ الهجوم على «مَكَّةَ» وهَدْم (الكعبة).

كانت «قُرَيْش» في ذلك الحين قد استجابت لِنَصيحة شَيْخِها «عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنافٍ»، فأَخْلَدَتْ إلى السَّكينة، وتحرَّكَتْ جُموعُها إلى شِعابِ الجبال طلبًا

للأمـان، وعدم التَّصَدِّي لجيْـش «أَبْرَهَةَ» أو الدُّخول معه في حرْب خاسِرَةٍ سَلَفًا.

وكان «عَبْـدُ الْمُطَّلِبِ» ـ جدُّ النبيِّ ﷺ ـ في ذلك الوقت يُمثِّـلُ الزَّعامَـةَ القُرَشـيَّة حِكْمَـةً ونُضُـوجَ رَأْيٍ ومَهابَـةً، يحترمُهُ الجَميعُ، ويُقَدِّرون مكانته.

الْمُناوَشَةُ

أخذت طلائِعُ فُرْسـانِ جيْش «أَبْرَهَةَ» تجُوبُ الضَّواحي،

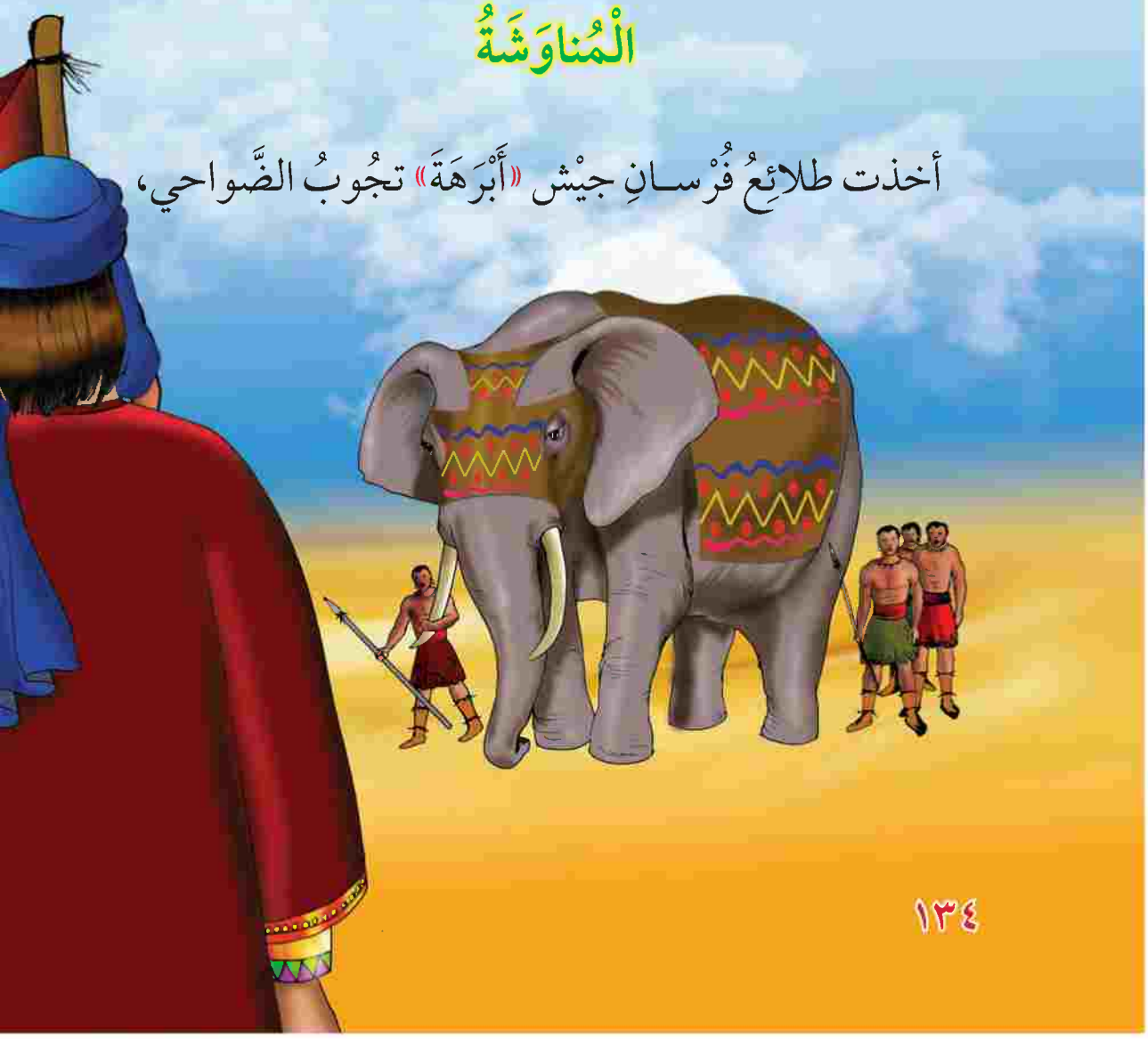

وتتسـقَّطُ المواقِـعَ، وتتحرَّشُ بالناس، وتسْـطُو على سَـرْح «قريش» وماشيتها المنتشرة في البادية طلبًا لِلْكَلأ والمرْعى.

وصادف أن سَـطَا رجـالُ «أبْرَهَةَ» على قطيـعٍ من الإبل والمواشـي يَخُصُّ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ»، فيما سَـلَبُوهُ من رَعْي «قُرَيْـش». وأُخْبِـرَ «عَبْـدُ الْمُطَّلِـبِ» بالواقعـة، فَسَـعى إلى «أبْرهةَ»؛ كَيْ يَسْتَرِدَّ مَالَهُ وحقَّهُ.

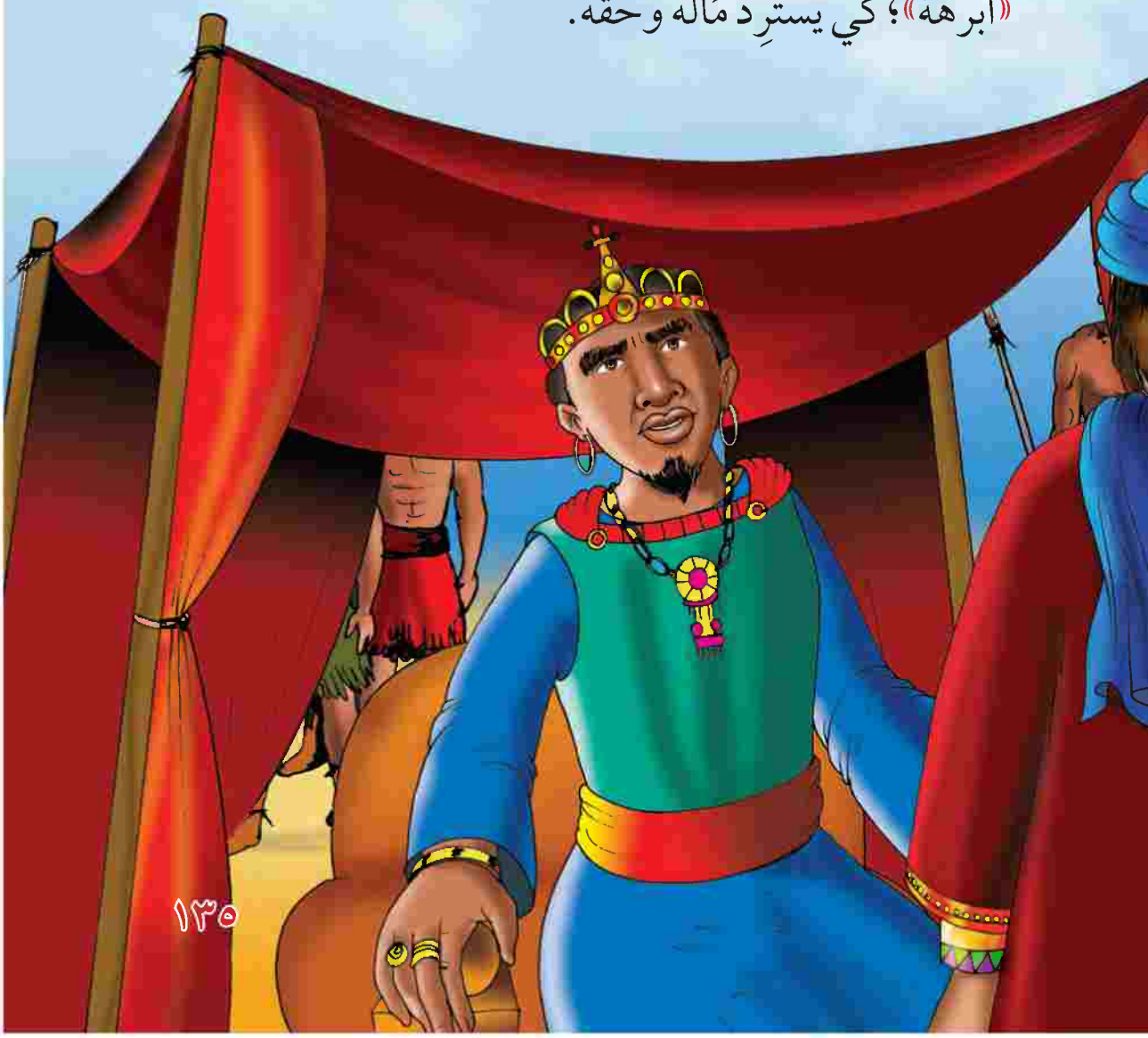

رَبُّ الْبَيْتِ يَحْمِيهِ

كان في جَيْش «أَبْرَهَةَ» أَحَدُ زُعماءِ القبائل العربية المُوَالية له، وكان هذا الزَّعيمُ على مَعْرفةٍ بـ «عَبْدِ الْمُطَّلِب»، تَرْبطُهُ به مَوَدَّةٌ سَابقَةٌ، وصداقَةٌ قَديمَةٌ.

أتى «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» إلى مُعسْكَر «أَبْرَهَةَ»، واتَّصَل بصديقِهِ وصاحبِهِ، وطلب منه أن يُساعِدَهُ في مقابلة «أَبْرَهَةَ».

وما أَسْرَعَ ما استَجاب الصَّديقُ... فَأَخْبَر «أَبْرَهَةَ» أن شَيْخَ «قُرَيْش» وزعيمَها يُريدُ مقابلته والتحدُّثَ إليْه... فَسَمَح له.

كان «أَبْرَهَةُ» يجلسُ على كُرْسِيٍّ عالٍ يُشْبِه العرْشَ، ومن ورائه العبيدُ يُلوِّحُونَ بمَراوِحَ من ريش النَّعام، وآخرون يُمْسِكُونَ الحِرابَ ذات السِّنان اللامعة، وطائِفَةٌ من الحَرس أيديهم على مقابِضِ سُيُوفهم، تلُوحُ في عُيُونهم أَماراتُ البأْس والغِلْظة.

مَنْظَرٌ كُلُّه رَهْبةٌ ... ووقارٌ... وجلالٌ.

لَكِـنَّ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» حين دَخَلَ المكان لم يتأثَّرْ بذلك كُلِّـه، بـل كان يَمْضـي باتِّجـاهِ «أَبْرَهَـةَ» في ثِقَـةٍ واعتـدادٍ وطُمَأْنينة!

ولقد كان شَـخْصُ «عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ» أَبْلَـغَ من ذلك كُلِّه، بقامتِهِ المديدة، وشُمُوخِ رأسه، ولحيتِهِ البيضاء الناصعة.

فَوَقَعَ في نَفْس «أبرهَةَ» موقِعَ التعظيم والتقدير، فأَجْلَسَ «عَبْـدَ الْمُطَّلِبِ» معـه على مَقْعدِهِ العـالي، وهَشَّ في وجْهِهِ وَبَشَّ له. ثُمَّ سَأَلَهُ عن حاجتِهِ.

ومـن غيـر تَلَجْلُجٍ أو تزْويـق كلامٍ أوْ تملُّـقٍ ... عَرَض «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مطلبه بأَنْ تُرَدَّ إليْهِ ماشيتُهُ.

فَنَظَـرَ «أَبْرَهَةُ» إلى «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» بدهشـةٍ وعَجَب، ثمَّ صارَحَـهُ بأَنَّه عنـد دُخوله عليه قـد خالطتْهُ الهيْبَـةُ منْه... وظَنَّـهُ إنَّما جاءَهُ لِيَبْحَـثَ معه أَمْرَ غَـزْوِ «مَكَّةَ» والاجْتراء على قُدْسِ أَقْداسِ الْعَرَب ـ (الكعبة) ـ، فإذا به يُحَدِّثُهُ عن أَمْرٍ شخْصِيٍّ محْضٍ؛ لذا فإنه قَدْ خاب فيه ظَنُّهُ.

بماذا أجاب «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»؟

لم يَنْفعِلْ ولم يتأَثَّرْ، بل ظَلَّ راسِخَ النَّفْس رابِطَ الجأْشِ، وبِمُنْتهى الهدوء والثقة قال:

«الإِبلُ ـ أيها السيِّد ـ أنا صاحِبُها وأنا ربُّها، فأنا المسؤولُ عنها، ولذا أَقُول لك: أما الإِبلُ فهي لي، وأما البيْت فَلَهُ رَبٌّ يَحْمِيه».

وأَمَرَ «أَبْرَهَةُ» ساخِرًا أن تُرَدَّ على «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» إِبلَه، وانْفَضَّ المجلسُ.

الْفِيلُ والطَّيْرُ الأَبابِيلُ

واستعدَّ «أَبْرَهَةُ» للهجوم وعَبَّأَ قُوَّاتِهِ.

ثُمَّ أَصْـدَر أَمْرَهُ لبعْضِ أَعوانِهِ وقادتِـهِ أنْ يُوَجِّهُوا الفيلَ نَحْـوَ «مكَّة»، ويُثيروهُ ويُهيِّجُـوه؛ تمهيدًا لِلانْقِضَاض على (الكَعْبَةِ) وهَدْمها...

لكنَّ الفيلَ لَمْ يَتَزَحْزَحْ من مكانِهِ، رغم تسـاقُط العِصِيِّ

الغليظة عليه، ورغم وخْزِهِ برؤوس الرِّماحِ والْحِراب، ورغم السِّياط اللَّاهبة!! وظَلَّ كالطَّوْد الشامخ، أو الصخرة الكبيرة الراسية، ومن عَجبٍ أَنَّهُم كُلَّما وَجَّهُوهُ وِجْهَةً غير (الكعْبة) سَعَى وأسْرَع، وقد يَدُوسُ بقوائِمِهِ الضخمة بَعْضَ الناس ولا يُبالي!!

وما هو إلَّا وقْتٌ يسيرٌ حتى احْتجب نُورُ الشَّمْس عن الأرض، وظَلَّلَتِ الْغَبْراءَ أسْرابٌ من الطُّيور المُتَلاحِقَة، تَحْملُ في مناقيرها جَمْرًا يلتهِبُ، ثم تَرْمِي جُنُود «أبرهة».

وكأنها ـ يا بُنَيَّ العزيز ـ في عُرْفِنا المُعاصِر: الطائرات القاذفة، تَحْمِلُ القنابِلَ المُدَمِّرة، تنقضُّ على العدُوِّ فتبيدُهُ.

وأَصْبَحَ كَيْدُ «أَبْرَهَةَ» في تضليل، وتساقط جُنودُه واحدًا إثر واحد، وكأنهم العَصْفُ المأْكُولُ، قد انتشرت جُثَثُهم وأشلاؤهُمْ فَوْقَ الرِّمال، حتى هُوَ نَفْسُهُ أُصِيبَ بالذُّعْر، وراح يَبْحَثُ عن سبيلٍ للهُروبِ والنَّجاةِ والخَلاص من هذه الداهية.

١٤١

لقد اختار أَضْخَمَ الحيواناتِ وأَكْبَرَها، وأَشَدَّها فتكًا في ثورتها؛ لتكون أَدَاتَهُ في هَدْم بَيْتِ التوحيد؛ أول بَيْتٍ وُضِعَ للناس.

لكنَّ الله تعالى، جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، ردَّ كَيْدَ «أَبْرَهَةَ» ومَكْرَهُ وتدبيره، بالحيوان الضعيف.. بالطَّيْر المُرَفْرِف.. يَحْمِلُ في مِنْقارِه الموْتَ الزُّؤامَ (حجارةً من سِجِّيل)!!

وبهذا كُفَّتْ يَدُ الطُّغْيان والإثم عن (الكعبة) المُشَرَّفة، وكان لابُدَّ أن تَتِمَّ إرادةُ الله تعالى بتَطْهيرِها من رِجْس الأوثان والأَصنام، وإعادتها نَقِيَّةً نظيفةً من دَنَسِ الجاهلية، كما كانت على عَهْدِ «إبراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام بوِلادَةِ سيِّد الأنام، رسُولنا المُصْطَفَى «مُحَمَّد بن عبد الله» ﷺ.

ففي ذلك العام ـ عام الفيل ـ وُلِدَ حبيبنُا الأَكْرَمُ ورَسُولُنا الأَعْظَمُ، قُدْوةُ المُوَحِّدين، وإمامُ المُتَّقِينَ، وخاتَمُ الرُّسُل أجمعين.

١٠

عَنْكَبُوتُ الْغَارِ وَالْيَمَامَتَانِ

!

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾.

صدق الله العظيم

سورة التوبة ـ الآية (٤٠).

فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُون

كانَـتْ «قُرَيْشٌ» قد أَجْمَعَتْ أَمْرَهـا، وحَزَمت وعَزَمَت عـلى قَتْلِ رَسُـول الله ﷺ، بعد أن قلَّبـتِ الأُمُور على أَوْجُهٍ أخْرى، بَيْن الْحَبْس أو التَّشـريد أو الْقَتْل، فما وجَدَت إلَّا القَتْلَ سبيلًا للْخلاص!!

واتَّفَق كُبَراؤُها على أَنْ يَتولَّى ذلك نَفَرٌ عَدِيدون، ينتمون إلى مُخْتَلِفِ الْبُطُون؛ كي يَتَفَرَّق دَمُ رَسُول الله ﷺ فيها جميعًا، ومن ثَمَّ يعجز «بَنُو هاشِمٍ» عن المُطالَبة أو المُحارَبة، فيضيع الحقُّ.

وفي ليْلة التَّنْفيذ... اجتمع المُتآمِرُون حَوْلَ بَيْت رَسُول الله ﷺ، وأحاطوا بالدَّار من كُلِّ جانب، ينتظرون لَحْظَة خُروجِه للانْقِضاضِ عليه بسُيوفهم المُشْرَعَةِ البرَّاقة، وقَتْلِهِ!!

وكان رَسُـولُ الله ﷺ قد عَزَم في تِلْكَ اللَّيْلَةِ علَّى مُغادرةِ «مَكَّـةَ» مُهاجِرًا منها، وقد قـدَّم أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ قَبْلَهُ، أولئك الذين تركوها إلى «يَثْرِبَ»، ولم يَبْقَ معه إلَّا القلائل، وعلى

رأسهم «أَبُو بَكْر الصِّدِّيق» رضي الله عنه .

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ واشتَدَّ ظلامُه، وسكَنَتِ الْحَرَكَةُ في الطُّرُقات، وخَفَّ وقْعُ الأَقْدام، تحَرَّك من داره ﷺ. وقَبْلَ أن يَفْتَحَ البابَ أَخَذَ يَتْلُو قَوْل الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

فإذا أفْرادُ تِلْك الْعُصْبَة جميعًا نِيامٌ!!

وَخَرَج ﷺ من بَيْنِهم وَهُمْ لا يَشْعُرون!! وتجاوَزَهم، وقد وَضعَ على رَأس كُلٍّ مِنْهُم ذرَّات من التُّراب والرِّمال، ومَضَى إلى دار «الصِّدِّيق» رضي الله عنه، الَّذي كان يَنْتَظِرُهُ.

قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ رَفيقًا

وكان «أَبُو بَكْرٍ» رضي الله عنه فيما سَبَقَ من الأَيَّام يَسْتَأْذِنُ رَسُول الله ﷺ بالْهِجْرَةِ، فلا يأْذَنُ له، ويقولُ:

«اِنْتَظِرْ لَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ لَكَ رَفيقًا».

حَتَّى أَخْبَره من قريبٍ بأَنَّ الله قد جَعَلَ لَهُ رفيقًا، وكان «أَبُو بَكْرٍ» رضي الله عنه في غاية السُّرورِ والسَّعادَةِ؛ لأن النبيَّ ﷺ هو رفيقه في الرِّحلة التاريخية.

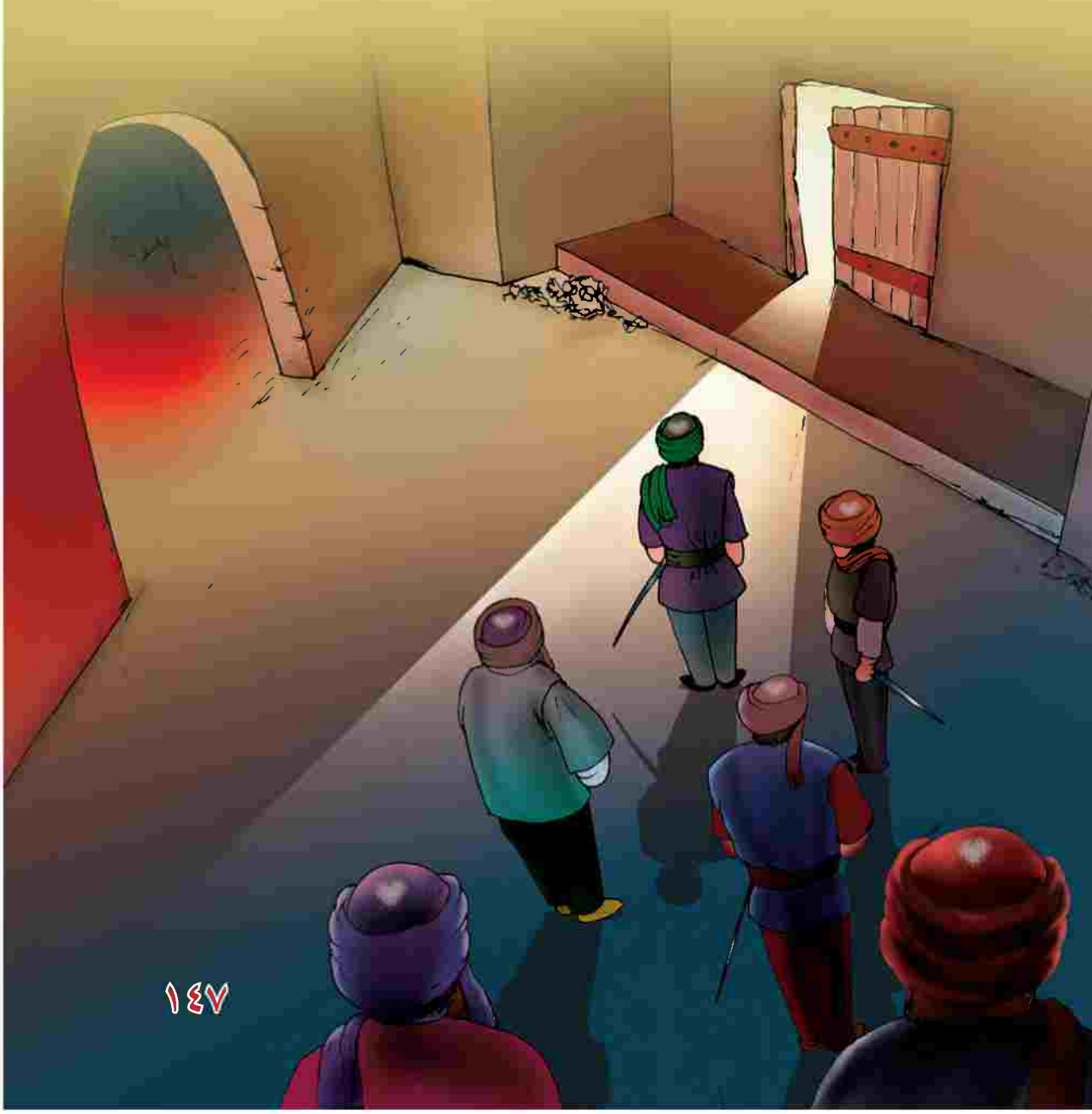

وَقَرَع رَسُولُ الله ﷺ بابَ بَيْتِ «أبي بكْر» فَفُتِحَ له وَدَخَلَ، ثُمَّ انْطلقا معًا من بابٍ خَلْفِيٍّ صغير خارجَيْن، باتِّجاهِ غار «ثَـوْرٍ» الَّـذِي يَقَـعُ في إحدى ضَواحي «مَكَّةَ».

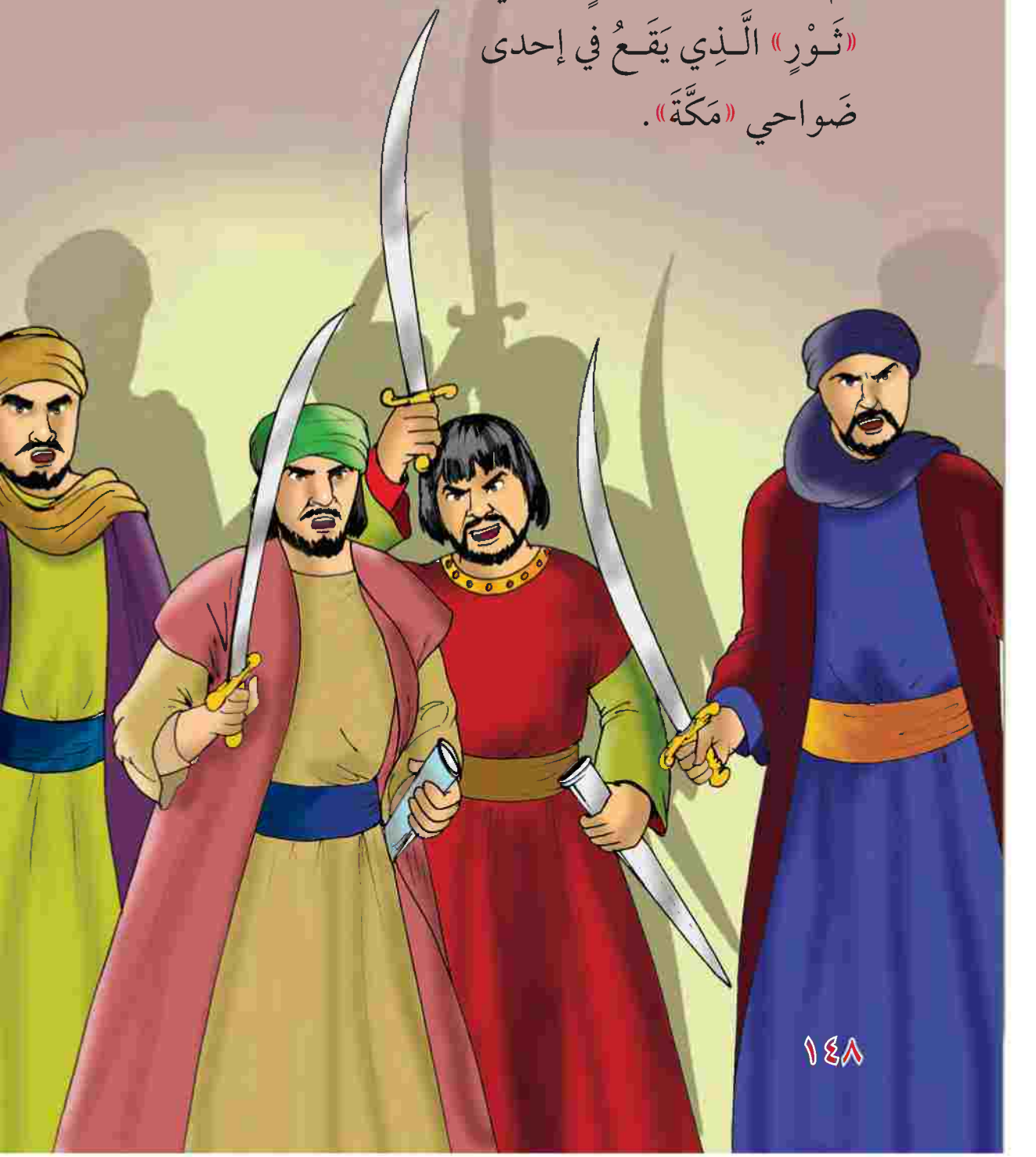

وعِنْـد بُلُوغ الغار، وقَبْلَ الدُّخُولِ إليـه، تقدَّم «أَبُو بَكْرٍ» رضي الله عنه يَسْـتَأْذِنُ رَسُـولَ الله ﷺ في الْوُلُـوج قَبْلَـهُ؛ لِيَطمئِنَّ إلى خُلُوِّهِ من الخَطَر، سـواءٌ كان ذلك الخطر سَبُعًا مُفْتَرِسًا أَوْ حيوانًا زاحِفًا أو صُعْلُوكًا مُخْتَبِئًا، أَوْ غَيْر ذلك!!!

يَوْمُ «قُرَيْشٍ» الْمَشْؤُومُ

واسـتفاق فِتْيانُ «قُرَيْشٍ» المُحيطون بِبَيْت رسُول الله ﷺ مـن غَشْـيتِهِم، واقتَحَمُوا الـدَّار وهم في فَزَعٍ وغَيْـظٍ وغِلْظـة... فلمْ يَجِـدوا فيها غَيْـرَ الفتى «علي ابـن أبي طالب» رضي الله عنه مُتَمَدِّدًا في فراش رَسُـولِ الله ﷺ، مُتَسَجِّى بِبُرْدِه الحَضْرَميِّ ﷺ!

وعادوا من مُهِمَّتِهم خائبين يَجُرُّون أَذْيالَ الفَشَـل... وطرقُوا باب دار «أبي بكر»، وعلى رأسهم «أبو جَهْل»، فلم يَظفروا بطائلٍ ...

ثم انطَلَقُوا فُرْسانًا ومُشاةً، ومعهم الأَدِلَّاءُ وقُصَّاصُ الأثر يَبْحثون هُنا وهناك؛ لعلَّهُم يَظْفرون ولَوْ بِخَيط

أَملٍ ضعيف يدلُّهُم على وِجْهَةِ رسولِ الله ﷺ مع صاحِبِه «أبي بكْر الصِّدِّيق» رضي الله عنه وبذلوا من أَجْل ذلك غاية جُهْدِهم وطاقاتِهم.

عِنْدَ بابِ الْغارِ

وفي تَطْوافِهم في مختلف الأنحاء والاتِّجاهات، وصَلُوا إلى غار «ثَوْرٍ» حَيْث يَخْتبئُ رسُول الله ﷺ مع «أبي بكْر».

وكان وقْعُ حوافِرِ الخَيْل فوق سَطْحِ الغار وعِنْد بابِهِ، وكذلك الصَّهيلُ، وأصْواتُ الباحثين المُنَقِّبين يُوحي بالمُفاجأةِ المُرْعِبَةِ المُخيفَةِ... ويَؤُزُّ أَزًّا... وَيَتَرَجَّعُ صَدَى الأَصْواتِ بين جَنَبات الْوِهاد وسُفُوحها وعنْد الْقِمَم أَيْضًا.

وقال «أَبُو بَكْرٍ» رضي الله عنه :

«يا رسُولَ الله: لَوْ أنَّ أحدَهُم رَفَعَ قَدَمَهُ لَرَآنا».

فقال ﷺ :

«ما بالُك يا «أبا بَكْرٍ» باثْنَيْنِ الله ثالِثُهُما!».

وفي هـذا الصَّدَد أنْزَلَ الله تعـالى قوْلهُ الكريم، في مُحْكَمِ كتابه العظيم:

﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾.

الْعَنْكَبُوتُ

وَتَقَدَّم بَعْضُ الْفُرْسانِ القُرَشِيِّين من باب الغَار، مُعْتليًا صَهْوَةَ جوادِهِ في غَطْرَسَةٍ وعَنْجَهِيَّةٍ وَكِبْرٍ، وحاول التَّرجُّل، وقد شهَرَ سَيْفَهُ بِيَدِهِ! فقال له صاحِبٌ لهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ:

«ماذا تُريدُ أَنْ تَفْعَلَ؟».

فقال:

«أُريدُ أَنْ أَدْخُلَ هذا الغار بَحْثًا عَنْ «مُحَمَّدٍ» وصاحِبه، فَلَعَلَّهُما في دَاخِلِهِ، فَأَقْتُلهما، وأُخَلِّصَ الْعَرَب من فِتْنَةِ «مُحَمَّد»!».

فقال لهُ صاحبُهُ:

«أَلا تَرَى؟!».

فقال الآخر:

«وماذا أَرَى؟ إِنَّ الأَثَر يَنْتهي عند باب الغَار، وأُرَجِّحُ أَنَّهما هُنا».

فَرَدَّ عَلَيْه صاحِبُهُ يَصْرِفُهُ عن بُغْيَتِهِ:

«ألا تَـرَى إلى نَسـيج العَنْكَبُـوتِ عـلى بابِ الغـارِ؟! إِنَّهُ ـ ولا شكَّ ـ أَقْدَمُ من ميلاد «مُحَمَّد»!!!».

وما كان هذا الصَّرْفُ وتِلْكَ الآيَةُ إلا بتدبيرٍ من الله تعالى؛ فقد جَعَلَ الله ـ سُـبْحانه ـ عنكبوتًا تغْزِلُ خُيُوطًا تُغَطِّي بها بابَ الغار!!

وهُوَ تَحَدٍّ منَ الباري عزَّ وجلَّ..

تَحَدٍّ بِأَوْهَى الخُيوطِ وأَضْعَفِها لجَبَرُوتِ الكُفْر وطُغْيانِ الشِّـرْك، وهُوَ ـ ولا شَكَّ ـ استهزاءٌ وسُخْريةٌ لِلْعُقُول التي أضلَّها الْهَوَى وأعماها الجَهْلُ.

الْيَمامَتانِ

وأَرْدَف الصاحِبُ يَقُولُ لصاحِبِهِ:

«أَوَ لا تَـرَى أَيْضًا تِلْـك اليَمامَتَيْـنِ الْبَرِّيَّتَيْن وقد اتَّخَذتا وَكْرَهمـا وعُشَّـهُما في الشُّـجَيْرةِ التـي تُغَطِّـي بأَغْصانهـا الشَّوْكيَّةِ بابَ الْغار؟!!

أُثْبُـتْ يا صاحِ فوق صَهْـوَةِ جَوادِك، وهيَّا بنا نَبْحَثْ ولا تُضَيِّع الوَقْتَ!».

قال الْفارِسُ المُتَغَطْرِسُ لصاحِبِه:

«الحقُّ مَعَكَ يا أَخي .. هيا بنا !!».

وانْصَرَفَ جَمْعُ فُرْسـانِ «قُرَيْش» ومُشـاتُهُم وأَدِلَّاؤهُم عن بابِ الْغارِ، وابْتَعَدُوا، وغَيَّبَتْهُم بُطُونُ الأَوْدِية وشِعابُ الجِبالِ، يَرُودُونَ الفيافيَ والْقِفارَ في مَسْـعًى جَعَلَهُ الله تعالى على غَيْرِ هُدًى.

أَيَّامٌ ثَلاثَةٌ

وَمَكَثَ رسُولُ الله ﷺ مع «أبي بكْر الصِّدِّيق» ﷺ في الغار أَيَّامًا ثلاثة، يَغْدو عَلَيْهم فيها «عبد الله بن أبي بكْر» ﷺ يَنْقُلُ إليْهما أَخْبارُ «قُرَيْشٍ» وتحرُّكاتها، ويأتيهم فيها أيضًا «عامِرُ بْنُ فُهَيْرة» مَوْلى «أبي بَكْرٍ»، فَيُريحُ قَطِيعَهُ من الشِّياه، ويَحْلِبُ لهما ويسقيهما لبنًا سائغًا.

وفي الْيَوْم الثالث، وقد هَدَأَ الطَّلَبُ، وَيئِسَتْ «قُرَيْش» من الْبَحْث والتفتيش، جاءَهما دليلُهُما «عبد الله بن أُرَيْقط» بالرَّاحِلَتَيْن اللَّتَيْن اشْتراهما «أَبُو بَكْرٍ» وأَعَدَّهُما لِلرِّحْلةِ المُبارَكَةِ.

وعلى بركة الله، وتَحْتَ رعايَةِ عَيْنِهِ الَّتِي لا تَغْفَلُ ولا تَنامُ انطلق الرَّكْبُ المِيْمُونُ باتِّجاه «يَثْرب»...

ولقد كانت الرِّحْلَةُ من أَعْظم وأَقْدس وأَشْرَف ما عَرَفَتِ البشريَّة والإِنسانيَّةُ هِجْرَةً وجِهادًا في سبيل الله.

وكان اليوْم العظيم الَّذِي تَشَرَّفَتْ فيه «المَدِينَةُ» بِقُدومِ

المُصْطَفَى ﷺ، واليَوْم التَّاريخيّ الَّذي انْتَقَلَتْ فيه دَعْوَةُ الإِسلامِ ورِسالَةُ النبيِّ ﷺ إلى طَوْرٍ مَجيدٍ ومُسْتَقْبَلٍ حميد.

وهكذا تَرَى ـ يا بُنَيَّ العزيز ـ كَيْفَ كان للعنكبُوتِ الضَّعيفِ في بَيْتِهِ الواهِنِ وخُيوطِهِ الرقيقة، ولليمامَتَيْن الوادِعَتَيْن الأَثَرُ الأَقْوَى والأَشَدُّ في دَحْرِ فَظاظَةِ الشِّرْك، وجَبَروت الكُفْر، ولله تعالى في خَلْقِهِ شُؤونٌ!!

والسَّلامُ عَلَيْك ورَحْمَةُ الله وبركاتُهُ.

وإلى اللِّقاء في مَوْعِظَةٍ بالِغَةٍ وقِصَّةٍ جديدَةٍ عن حَيوانٍ آخر.

والحَمْدُ لله رَبِّ العالمين.